جامعة عبد الرحمان ميرة . بجاية

كلية الأدب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

عنوان المذكرة

جمالية أدب الرحلة

" رحلة ابن جبير " أنموذجا.

مذكرة مقدّمة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة و الأدب العربي.

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالب﴿ة﴾:

بن مسعود سامية.

بن مزيان مريم.

إشراف الأستاذ(ة)

مسيلي طاهر.

لجنة المناقشة

الأستاذة(ة): أومقران حكيم ..... رئيسا.

الأستاذ(ة) :مسيلي طاهر .....مشرفا.

الأستاذ(ة):صوالح وهيبة.....ممتحنة.

السنة الدراسية: 2019/2018.

تشكرات

نشكر الله سبحانه و تعالى أولا و نحمده كثيرا على أنه يسّر لنا للقيام بهذا العمل.

لا يسعنا في هذا المقام إلاّ أن نتوجه بالشكر الجزيل و الإمتنان الكبير، إلى الأستاذ المشرف " حكيم أومقران " على توليه الإشراف على هذه المذكرة و على كل ملاحظاته القيمة التي أضاءت أمامنا سبل البحث، و جزاه الله عن ذلك كل خير،

و الذي كان لنا الشرف أن يكون مشرفا علينا.

و إلى كل من ساهم في إتمام هذا العمل.

و إلى كل من خصّنا بنصيحة أو دعاء.

سامية/مريم .

إهداء

إلى من أنار لي درب العلم و المعرفة و حرص عليّ من الصغر و اجتهد في تربية و الاعتناء بي والدي العزيز.

إلى من علمتني الحب و العطاء بدون انتظار، إلى روحي الغالية أمي الحنونة.

إلى جدي و جدتي الكريمين أطال الله في عمرهما.

إلى روح جدتي رحمها الله. و أسكنها فسيح جنانه.

إلى من كانوا لي الأمل و القدرة إخواني و أخواتي.

إلى من تحمل عنادي و مشقة بحثي زوجي العزيز.

إلى زميلاتي: ليلي، سيليا، جيجي، مريم، وسام، ليديه، كاهنة.

سامية.

إهداء

إلى من أرضعتني الحب و الحنان

إلى رمز الحب و بلسم الشفاء

إلى من كان دعاؤها سر نجاحي

إلى أغلى الحبايب أمي.

إلى من جرع الكأس فارغا ليسقيني قطرة حب

إلى من كلّت أناهله ليقدم لنا لحظة سعادة

إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم

إلى القلب الكبير أبي رحمه الله و أسكنه فسيح جنانه

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة و النفوس البريئة إلى رياحين حياتي

إلى إخواني و أخواتي

إلى الذين أحببتهم و أحبوني أصدقائي من بعيد أو من قريب

إلى زميلاتي: سارة ، فيروز، نورة.

مريم.

مـقـدمـة

الرحلة جنس أدبي قديم عرف انتشارا واسعا عند العرب القدامى خاصة بعد الفتوحات الإسلامية، و صارت الرحلة أدبا ينقل ثقافة و حضارة الأجناس البشرية التي تعرّف عليها المسلمون.

أدب الرحلة نص يحمل في ثناياه مزايا جمالية خاصة به، تعمل على إيصال الآراء و التعابير و وجهات النظر و عادات و تقاليد المجتمعات، و يحمل أيضا خصائص فنية تميزه عن غيره من النصوص الأخرى، لما يمتلك من سرد و وصف و بناء يميزه عن الأنواع السردية الأخرى.

إنّ اختيارنا لموضوع أدب الرحلة و نص " رحلة ابن جبير " هو لغاية اكتشاف عالم الرحلة الأدبي و كيف صاغ ابن جبير نصه شكلا و مضمونا. وقد حمل عنوان مذكرتنا الإجابة لهذه الغاية كالتالي: " جمالية أدب الرحلة عند ابن جبير " و نروم من خلال عنصر الجمالية الإجابة على الأسئلة المطروحة في الإشكالية:

. متى ظهر فن الرحلة ؟

. من هم أشهر رواد هذا الأدب ؟

. ماهي الخصائص الجمالية لأدب الرحلة عند ابن جبير شكلا و مضمونا ؟

و عليه كانت الإجابة على هذه الأسئلة بالتزام خطة منهجية منذ بداية العمل حتى نهايته، إذ قسمنا بحثنا إلى فصلين و خاتمة.

تناولنا في الفصل الأول بعنوان الرحلة بين النشأة و التأصيل، مفهوم الرحلة لغة و اصطلاحا، و نشأة الرحلة و تطورها، أهمية الرحلة و أنواعها، أعلام أدب الرحلة " ابن جبير نموذجا "

أما في الفصل الثاني فجاء تطبيقي محض إذ نال نص رحلة ابن جبير الحيز الأكبر شرحا و تحليلا في عنوانه جمالية أدب الرحلة بدراسة مكونات أدب الرحلة و خصائص كتابة أدب الرحلة، جمالية أدب الرحلة و دلالات وصف أماكن في رحلة ابن جبير.

لا تقوم هذه الدراسة في جماليات أدب الرحلة على منهج نقدي قائم بذاته بل عمدنا على المقاربة الوصفية و نحن تتبع خطوات البحث موضوع الدراسة. فجمعنا بين التتبع التاريخي لنشأة و ظهور هذا الأدب، ثم بالتحليل الوصفي لعناصره الجمالية من سرد و سارد ووصف و مكان ميّز هذا النص الرحلي.

اعتمد البحث على مجموعة من المصادر و المراجع نذكر منها " رحلة ابن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار " أحمد عبد الرزاق خليل " جمالية المكان في رحلة ابن جبير الأندلسي "، سعيد يقطين " السرد العرب، مفاهيم و تجليات، حسني محمود حسين " أدب الرحلة عند العرب " .

و كأي باحث و هو يخوض سبيل إنجاز بحيث إلاّ و صادفته عراقيل و معيقات، و نحن ننجز بحثنا صعب علينا في بداية البحث إستيعاب نص أدب الرحلة و كيف نستخلص جمالياته الفنية كونه نص يجمع بين التاريخ و الوصف و الجغرافية و علوم أخرى، مما جعلنا نختار النص الأول و الثاني من رحلة ابن جبير كنموذج للتحليل

نتقدم بالشكر لأستاذنا المشرف أومقران حكيم بتوجيهاته التي كانت منارة أضاءت لنا درب البحث و مرشدا.

الفصـــــل الأول: الرحلة بين النشأة و التأصيل

1 . مفهوم الرحلة:- لـغــة.

- اصطلاحا.

2 . نشأة الرحلـة و تطورها.

ـ نشأة الرحلة.

ـ أدب الرحلة في القرن الثالث للهجري

ـ الرحلة في القرأن الكريم.

ـ الرحلة العربية قبل الإسلام و بعده.

ـ أدب الرحلة في العصر الحديث.

3. أهمية الرحلـة و أنـواعـها .

ـ أهمية الرحلة.

ـ أنواع الرحلات.

ـ دوافع الرحلة.

4- أعلام أدب الرحلة ﴿ابن جبير﴾.

1. مفهوم الرحلة:

✓ لغـة: تعتبر الرحلة حركة انتقال لشخص أو أشخاص من مكان إلى مكان أخر.

يحدّد " **ابن منظور**"﴿ت711هـ﴾ في كتابه لسان العرب مفهوم الرحلة بأنها:«رحل الرجل ،إذا سار، ورحل رحول، وقوم رّحل، أي يرتحلون كثير، ورجل رحّال: عالم وبذلك ومجيد له ﴿...﴾، والترحّل والارتحال: الانتقال، والرحلة: اسم للارتحال، وقال بعضهم: الرّحلة: الارتـــحال، والرّحـــلة بالضّـــم، الوجـــه الـــذي تـأخـذ فيـه وتريـد»

[1]

أما في **معجم الوجيز** في مجمع اللغة العربية فلفظة: « رحل عن المكان رحلاً، و رحيلاً، و ترحلا. و رحلة : سار و مضى، و البعير رحلاً، و رحلةً: جعل عليه الرّحل فهو مرحول، و رحيل، أرحل فلان : كثرة رواحله فهو مرحل. و الرّحالة: السرج ﴿ج﴾ رحائل ، و الرحّال العرب الذين لا يستقرون في مكان واحد و يحلون بماشيتهم حيث يسقط الغيث و ينبت المرعى.»[2]

[1]ـ ابن منظور : لسان العرب، تحقيق نخبة من الأساتذة، دار المعارف ج3﴿مادة رحل﴾، القاهرة، د ط، دت، ص1608.

[2]ـ معجم الوجيز: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر مجمع اللغة العربية، ط1، 1980، ص258.259

أما " **القرآن الكريم** " فقد أشار إلى هذه اللفظة و مفهومها في رحلتي الشتاء و الصيف بحيث كانت قريش تقوم بهما من أجل التجارة: {لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء و الصيّف.}[1]

في قاموس المحيط " **للفيروز أبادي**": « ارتحل البعير: سار و مضى، و القيم عن المكان: انتقلوا، ترحلوا و الاسم: الرّحلة بالضمّ و الكسر، الارتحال، و بالضمّ: الوجه الذي تقصد، و السفرة الواحدة.»[2]

تجمع معاجم اللغة العربية على أن الرحلة هي انتقال من مكان إلى أخ، و هذا ما يريده الرحالون و ثبتوه في كتبهم بتأسيس لفن سردي نثري جديد في حقل الكتابة الأدبية العربية القديمة.

- ✓ اصطلاحا: تعتبر الرحلة كتابة يحكي فيها الرحّالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه، مضيفا إلى ذلك انطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم.

يتطلب على الّرحال أنْ يكون ذا مستوى ثقافي لكتابة الرحلة، بغية إتقان نقل أحداث سفره إلى كتابه، ولابد لكل رحلة مكتوبة من سفر حقيقي وفعلي، و لا يمكن تصوّر كتابة رحليه دون رحلة إلا في الرحلات الخيالية، " كرسالة الغفران " لأبي علاء المعري ﴿ت449هـ﴾، و رسالة " التوابع و الزوابع " لابن الشهيد ﴿ت426هـ﴾. و" التوهم " للحارث المحاسبي ﴿ت 243هـ﴾.

[1]- القرآن الكريم : سورة قريش ، الآية.1 ، 2.

[2]- مجد الدين بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط ، تحقيق :مكتب التحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف محمد نعيم العرفوسي ، مؤسسة الرسالة ، لبنان 2005 ط1. ص1005 .

إنّ الرحلة معنى كتابة و هو ما يسميه الباحث "سعيد يقطين"، «خطاب الرحلة، ويعرّفه بأنه عملية تلفيظ لفعل الرحلة ».[1]

عرف " الإمام الغزالي" السفر و الرحلة بأنهما :«نوع حركة و مخالطة أو نوع مخالطة مع زيادة تعب و مشقة »[2]. و أوضح أنّ « الفوائد الباعثة على السفر لا تخلو هرب أو طلب، و أنّ الإنسان لا يسافر إلاّ في غرض، و الغرض هو المحرك.»[3]

كما أشار إليها " بطرس البستاني " بأنها: «انتقال واحد أو جماعة، من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة، و أسباب متعددة.»[4]

تقدم دكتور صلاح الدين الشامي خطوات حين عدّها «إنجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا، لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، و إسقاط الفاصل المعين بين المكان و المكان الأخر و يأتي هذا الإنجاز من أجل هدف معين، ويجاوب هذا لهدف إرادة الإنسان و حركة الحياة على الأرض شكل مباشر أو غير مباشر، و قد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان و ترضيه ...استجابة مباشرة لحوافز و دوافع محدّدة تدعوا بكل إلحاح للحركة و التنقل.»[5]

من خلال ما سبق نستنتج على أن الرحلة في جوهرها حركة، و هذه الحركة ذات هدف و إلا كانت سفها، قد يتحقق و قد لا يتحقق و يتم في كلتا الحالتين اكتساب خبرات عملية وفكرية ناجمة عن المخالطة و يتم التقابل بين الرحلة في اللغة و الرحلة في الاصطلاح على أنهما يجتمعان في كلمة " حركة ".

[1]- سعيد يقطين: السرد العربي ، مفاهيم وتجليات ، رؤية للنشر و التوزيع ، القاهرة ، ط1، 2006 ، ص200.
[2]- أبي حامد أحمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين ، ج2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط1، 1986 ، ص 273.
[3]- . ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي ، - كلية الأدب جامعة القاهرة ،ط1، 1995 ، ص24.
[4]- المرجع نفسه : ص 24.
[5]- صلاح الدين علي الشامي ، الرحلة عن الجغرافيا المبصرة، في الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، دط، 1999، ص 11.12.

الرحـلـة ← انتقال← هدف

↓ ↓

حركة ﴿ اكتساب خبرات عملية فكرية.﴾

بعد أن حدّدنا مفهوم الرحلة في الاستعمال اللغوي و الاصطلاحي، سنحاول تحديد مفهوم أدب الرحلة باعتبارها فنّا من فنون النثر، و على الرغم من تعدد المفاهيم، و التي تختلف من دارس إلى دارس أخر إلاّ أنها في النهاية تصب في قالب واحد، فقد جاء في معجم **المصطلحات العربية في اللغة و الأدب:** « أن أدب الرحلة هو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، و قد يتعرض فيها ما يراه من عادات و سلوك و أخلاق، و لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعة التي شاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة بمرحلة أو بجمع بين كل هذا في آنٍ واحد. »[1]

أدب الرحلة حسب توضيح " مجدي وهبة " هو تلك المؤلفات التي تتحدث عن مغامرات واقعية قام بها الرحالة، و تعرف من خلالها على أحوال البلاد التي زارها و عادات أهلها و سلوكهم و التي تركت في نفسه انطباعات عدّة نقلها لنا من خلال مؤلفه.

عرف " ناصر موافي " أدب الرحلة بأنه: «ذلك النثر الذي يصف رحلة و رحلات واقعية، قام بها رحال متميز موازناً بين الذات و الموضوع من خلال مضمون و شكل مرن بهدف التواصل مع القارئ و التأثير فيه. »[2]

من خلال هذه التعريفات المتعددة الجوانب و الواردة في مقدمات كتب أو في مقالات يمكننا قول أنّ أدب الرحلة في فن نثر يقوم على رحلة قام بها شخص في الواقع، فينقل

[1]. مجدي وهبة: كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية، في اللغة و الأدب، ص17.

[2]. ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي " حتى نهاية القرن الربع الهجري " ص 41.

للقارئ مشاهدته و انطباعاته التي تركتها الرحلة أو بعبارة أخرى « يقوم أدب الرحلة بين الرحلة واقعة في زمن و مكان محدد، يقوم بها رحالة أن تكون حب الرحلة منه فيصف من خلالها انطباعاته و مشاهدته فيمزج في وصفه بين شخص الرحال من ناحية و الرحلة كموضوع من ناحية أخرى، يستخدم النثر المعبر عن ذات الرحال، و الحامل بخصائصه دون تكلف أو إسراف مع المحافظة على بنية تكفل تماسك العمل و وحدته من بدايته حتى النهاية لأنه فن قائم بذاته له أصوله و قواعده الفضفاضة، الهدف من التأثير من القارئ و تواصل معه حيث يتمتع بكل ما فيه، و تزداد ثقافته و معارفه بطريقة غير مباشرة.»[1]

يقوم القارئ برحلة مشوقة دون حركة و الانتقال، إذن فأساس فن الرحلات تتمثل في:

الرحّالة: و هو الشخص الذي قام بالرحلة.

الوصف: و ذلك بوصف الرحالة كل ما وقع عليه نظرهم و شدّ انتباهه حول ذلك البلد.

و بالإجمال فإن أدب الرحلة «فن من فنون النثر العربي، و تشكيل للنص ذاتي شخصي بخصوص من الأنا و الأخر ... يتبين مكتفي في شكل معين للتعبير عن رؤية معينة انطلاقا من خطاب مفصح عنه في البداية أو مضمر في تضاعيف السرد و الوصف و التعليقات.»[2]

2. نشأة الرحلة و تطوراتها:

✓ نشأة الرحلة: منذ الأزل كانت الرحلة و مازالت هواية الأمم و نجدها في

الثقافات و الحضارات القديمة، حتى أنه قيل أنّ :« كتاب بوزانايس، رحلة في بلاد الإغريق هو المؤثر الأول في ، أدب الرحلة ، و قد ظهر أثناء القرن الثاني الميلادي و توسعوا فيها

[1]ـ ناصر عبد الرزاق الموافي: ص ص 40.41.
[2]ـ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي " التجنيس أليات الكتابة خطاب المتخيل و رؤيته "القاهرة ،ط1، ص45.

بعد مجيء المؤرخون و الجغرافيون الذين كتبوا في هذا الجنس الأدبي بكتب مستقلة عن بعضها البعض .»[1]

و لما جاء عصر النهضة عرّف " أدب الرحلة " نوعا من التميز عن باقي الأنواع الأدبية الأخرى ، بحيث أصبحت لها سمات و خصائص تميزه عن القصة و الرواية .

فاذا تمعنا النظر في تاريخ العرب فنجد أنّ أقدم رحلات العرب خارج الجزيرة هي عن طريق البحر، و معظم هذه الرحلات هي من أجل التجارة و قليل منها ما تكون من أجل المغامرات، و قد تتغير حسب الفترة الزمنية و الظروف المعيشية لتلك الفترة.

أتفق العرب على أنّ الرحلة العربية مرت بأطوار متعددة، «حتى بلغت أوج ازدهارها في القرن الرابع الهجري إلى القرن العاشر الميلادي و هو ازدهار أدت إليه عوامل كثيرة.»[2] وهذا الازدهار الحضاري كان في نفس القرن عموما، و ازدهار الرحلة بشكل خاص.

قسم العرب الرحلات إلى ثلاثة أقسام رئيسية مدونة :

« أ . جغرافيا وصفية، يسيطر عليها النهج العلمي.

بـ . أدبي جغرافي، يوازن بين النهج العلمي، و الأسلوب الأدبي.

ج . أدب الرحلات، يمثل الأدب فيه محور لانتباه. وإن لم يخل من الجانب العلمي الذي يرد في صور غير مباشرة.»[3]

[1]ـ حافظ محمد باد شاه: الحجاز في أدب الرحلة العربي، أطروحة لنيل شهادة الدكتورة في اللغة العربية و أدبها، كلية الدراسات و البحوث المتقدمة المتكاملة، دفعة 2009 .2013 ، الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام إباد. باكستان، ص 36.

[2]ـ ناصر عبد الرزاق الموافي: ص 21.

[3]ـ المرجع نفسه : ص ن.

لقد توزعت النصوص العربية القديمة على هذه الأقسام و نالت اهتماما كبيرا « باعتبارها مصادر حضارية، علمية، و اجتماعية...الخ و كانت الثقة فيها كبيرة، ولكن .. واكب هذا الاهتمام إهمال لها باعتبارها " نصوصا أدبية "فلم يحظ بدراسات أدبية ملائمة . لا قديما و لا حديثا.»[1]

يلاحظ " عبد الرزاق الموافي " في كتابه " الرحلة في الأدب العربي " أن كثيرا من المستعربين قدموا « خدمات جليلة لهذا الفرع من الدراسات، حتى أنه يمكن اعتباره الفرع الأول الذي نال اهتمامهم، فحققوا النصوص علميا دقيقا... و راعوا أسسا منهجية صارمة في تحقيق النصوص و نقدها.»[2]

✓ تطور أدب الرحلة من القرن الثالث إلى القرن التاسع:

ـ أدب الرحلة في القرن الثالث للهجري: ساهم الرحالين و العلماء و المؤرخين في هذا القرن في تطوير أدب الرحلة « المؤرخ المعروف بهشام الكلبي الذي يعد نموذجا للرحالة الخبير بالجزيرة العربية، و قد صنف العديد من المؤلفات أهمها " كتاب الأقاليم "،" كتاب البلدان "،" البلدان الصغيرة " الأصمعي " رسالة في صفة الأرض و السماء و النباتات "، و تلميذه " سعدان بن المبارك " الذي ألف كتاب " الأرضين و المياه و الجبال و البحار "."»[3]

[1]ـ ناصر عبد الرزاق الموافي: ص 21.

[2]ـ المرجع نفسه :ص، ص 22.21.

[3]ـ المرجع نفسه : ص 37.

إن أقدم رحلة كتبت في مقياس أدب الرحلة هي رحلة " سلام ترجمان "«إلى قزوين ليشاهد سد يأجوج و مأجوج، و بدأت رحلته عام 227هـ، و قد وصل إلى السد، و تفاصيل رحلته موجودة في " المسالك الممالك لابن خرداذبة ".»[1]

بالإضافة إلى سلام الترجمان هناك رحّالة آخرون الذين دونوا رحلاتهم منهم " اليعقوبي " ، و " ابن خرداذبة "، " ابن رسته " و غيرهم من الرحال الذين لم يدونوا رحلاتهم، في القرن الثالث ولكن اختصروا أغلب أعمالهم . على الجزيرة العربية و ما سابقتها.

ـ القرن الرابع الهجري :عرف الإسلام اتساعا بحيث وصل إلى أنحاء العالم و هذا بفضل التنقل، بنية نشر الإسلام على الأرض كتنقل المسلمون ناشدين بنشر الدين الجديد في كل بقاع العالم، و في القرن الرابع الهجري، عرفت الرحلة أوّجهها التي واكبت الفتوحات الإسلامية و التي عبّدت الطريق للتجار العرب و المسلمين للتنقل و التدخل« وتوسعو لتشمل رحلاتهم و مؤلفاتهم معظم العالم المعروف حينئذ.»[2]

نذكر من بين الرحالين الذين شهدهم هذا القرن " المسعودي " الذي ألف " مروج الذهب و معادن الجوهر " و ابن فضلان الذي « كان رئيسا لبعثة التي أرسلت الخليفة سنة309هـ إلى منطقة بلغار، و دون ابن فضلان رحلته بشكل كتاب، و نشره في القرن التاسع عشر ميلادي.»[3]

كذلك رحلة " إبن سليم الأسواني " لها أهمية بالغة لأنها تعد « أول رحلة إلى بلاد التوبة تصل إلينا أخبارها في عام 365هـ، و كان قد بعث به القائد جوهري الصقلي في مهمة دبلوماسية إلاّ أنّ الكتاب مازال مفقودا.»[4]

---

[1]ـ حافظ محمد باد شاه: ص37.

[2]ـ المرجع نفسه: ص85.

[3]ـ المرجع نفسه: ص38.

[4]ـ المرجع نفسه: ص38.

هذا الأخير قد أشار إليه "كراتشكوفسكي" في كتابه " تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، و قال: « و من الثابت أن ابن سليم الأسواني لم يكن المثال الفريد للكتاب المغمور الذي أسدل عليه النسيان ستاره في الأدب الجغرافي للقرن العاشر فإلى جانب كبار المؤلفين المعروفين لدينا جيدا و الذين مرّ الكلام عليهم أو سيمر، يوجد عدد غير قليل من الكتاب المجهولين الذين لم يعرف المسلمون عنهم لسبب ما سوى القليل.»[1]

ـ القرن الخامس للهجري: مازالت الفتوحات الإسلامية قائمة في هذه الفترة و« البيروني من أشهر رحالة العرب في القرن الخامس للهجري، وهو من كبار العلماء و الفلاسفة في العرب و هذا هو البيروني الذي رافق السلطان محمود القرنوي في فتوحات الهند، و كان يبحث و يسير في بلاد الهند ويدّون ما يشاهد في تلك البلاد، و كتابة الذي دون في تلك الرحلة العظيمة هو الهند الكبير أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة .»[2]

و من الرحالة الآخرين في هذا القرن نجد " ابن بطلان " الذي كان « يرتحل من بلد إلى بلد و من منطقة إلى منطقة طلبا للعلم و المعارف و سعيا لاكتشاف الجديد في الفكر و الطب.»[3]

هناك أيضا الرحالة أحمد بن عمر العذري « الذي ارتحل إلى الشرق و عاش في مكة تسعة أعوام و خلف لنا كتابا سماه" نظام المرجان في المسالك و الممالك ".»[4]

[1]ـ أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، القسم 1، الإدارة الثقافية في جامعة الدولة العربية ،1957 ص193.

[2]ـ حافظ محمد باد شاه: ص39.

[3]ـ المرجع نفسه: ص 40.

[4]ـ المرجع نفسه: ص 40.

ـ القرن السادس للهجري: يكاد هذا القرن أن ينافس القرن الرابع للهجري لكثرة الرحلات فيه، و حجم الإنجاز الكبير على الصعيد الجغرافي و أدب الرحلة، قد تميز بقوة هؤلاء الرحالة و أهمية الآثار التي خلفوها و المناهج المتبعة.

تعتبر أول رحلة في هذا القرن « رحلة أبي حامد الغرناطي الأندلسي عام 508هـ الذي طاف بالعالم الإسلامي و بخاصة المناطق الشمالية في العالم الإسلامي، حيث قضى فيها أكثر من خمس وعشرين عاما، و تزوج خلال رحله، و نشر الإسلام، و صنف كتابين هما " تحفة الألباب و نخبة الإعجاب "،" و المغرب عن بعض عجائب المغرب ".» [1]

عرف هذا القرن رحالة آخرون من بينهم " الإدريسي" الذي رحل في الأندلس و مصر و الشام والمغرب و أسيا و قد أشتهر بكتابه " نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ".

و غير هؤلاء الذين اشتهروا في إنتاج الرحلة منهم إبن جبير الذي هو موضوعنا في هذه المذكرة، و أخيرا نذكر الأمير المجاهد " أسامة بن منقذ " الذي سمي كتابه " الاعتبار"

ـ القرن السابع للهجري :" ياقوت الحموي" « من أحد الوجوه المضيئة في تاريخ العرب، و كان رحالة و عالما جمع بين المعارف الكثيرة و أبحر في علوم عديدة، و من أهم إنجازاته : معجم البلدان " ، "معجم الأدباء".» [2]

القرن السابع للهجري حفيل بالرحالة و العلماء فإلى جانب " ياقوت الحموي" هناك " الغدادي" صاحب كتاب " الإفادة و الاعتبار في الأمور المشاهدة و الحوادث المعانية بأرض مصر."

و في الأخير نذكر الأديب الفقيه محمد العبدري الذي بدأ رحلته عام 688هـ صاحب كتاب " الرحلة المغربية ".

---

[1] ـ حافظ محمد باد شاه: ص 40.

[2] ـ المرجع نفسه : ص42.

ـ القرن الثامن للهجري: زين هذا القرن بموسوعات مهمة، و كلها تسهم في إضاءة أدب الرحلات و خدمته، مثل « نهاية الأدب في فنون الأدب " لنويري "،" و مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " لأبي فضل العمري ... و نجد في هذا القرن أيضا " ابن خلدون " الذي لا يحتاج إلى أي تعريف و كتابه في أدب الرحلة " التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا.»[1]

نذكر إلى جانب ابن خلدون " محمد التجاني " صاحب كتاب في أدب الرحلة " تقويم البلدان ".

ـ القرن التاسع للهجري إلى غاية النهضة العربية: عرف العرب في هذه الفترة حركة عمت البلاد العربية، و هي تنبه العرب إلى ماضيهم، و إدراكهم واقعهم المتخلف و سعيهم لإحياء الماضي بما فيه من أصالة و تراث عربي إسلامي، و العمل على تجاوز التخلف من أجل بناء مستقبل أفضل، و هذا ما أدى إلى نقص الرحالة و الرحالات.

رغم الأوضاع السائدة في هذه الفترة إلاّ أنّ هناك من قام بالرحلة. فنجد من بينهم " عبد الغني الناسلي " صاحب الرحلة الحجازية . و " الطرابلسي " و " العياشي " .

و من بين الأسباب التي أدت إلى قلة الرحلات نذكر :

« أ. المشكلات السياسية و الاقتصادية التي لحقت و عمت العالم العربي.

بـ ـ النكوص الثقافي و الحضاري و التدهور الإنساني بشكل عام .

جـ . زوال دولة الإسلام من إسبانيا .

د . سقوط كل دولة تحت عبء مشكلاتها الداخلية و النزاع على السلطة.»[2]

[1]ـ حافظ محمد باد شاه: ص ص 42.43.

[2]ـ المرجع نفسه : ص 44.

✓ الرحلة في القرآن الكريم:

في بداية الحديث عن الرحلة لا بد من النظر إلى أولى الرحلات الثابتة لدينا و المستاقاة من أوثق و أصدق مصادرنا الإسلامية ألاّ و هو القرآن الكريم، قد حفل القرآن الكريم بالأمثلة العديدة. و على الرغم من عدم ورود كلمة رحلة فيه إلاّ في سورة قريش: قال تعالى { لإيلاف قريش﴿1﴾ إلافهم رحلة الشتاء و الصيف ﴿2﴾ فليعبدوا ربّ هذا البيت ﴿3﴾الذي أطعمهم من جوع و ءامنهم من خوف﴿4﴾.}[1]

تحدثت هذه السورة عن الرحلة، و هي الرحلة التي يقوموا بها أهل قريش للتجارة، فتكون في الصيف و الشتاء، فمن المتداول أنّ أهل مكة المكرمة اتجهت أنظارهم إلى التجارة، و ذلك راجع للموقع الجغرافي لها. كما قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: {ربّنا إني اسكن من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوات فاجعل أفئدة من النّاس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴿37﴾.}[2]

و على هذا تمتعت مكة المكرمة بمكانة عظيمة و تدافق النّاس عليها استجابة لنداء و دعوة إبراهيم عليه السلام.

حرص العرب القدامى على إقامة هذه الأسواق سنويا ففيه يتنافس الشعراء في إظهار مواهبهم الشعرية، إلى جانب استغلال هذه الأسواق لتبادل السلع و الأفكار العقائدية.

✓ الرحلة العربية قبل الإسلام و بعده:

ـ أولاّ : الرحلة قبل الإسلام

[1]ـ القرآن الكريم : سورة قريش ، الآية 1.4

[2]ـ القرآن الكريم : سورة إبراهيم ، الآية 37.

أول رحلة هي رحلة ما قبل الولادة، و هي من العدم إلى الوجود، و رحلة الولادة ينتقل فيها المخلوق من الرحم إلى الدنيا، ثم بعدها رحلة العمر، و هي رحلة الانتقال من عمر إلى عمر، و في الرحلة الأخيرة هي رحلة من فوق الأرض إلى تحت الأرض، فيقول الله تعالى { يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة، و غير مخلقة لنبين لكم و نقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من بتوفى و منكم من برد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا.}[1]

في هذه الآية الكريمة يقدم الله تعالى لنا ملخص الحياة و مراحله و هي عبارة عن انتقال من مرحلة إلى أخرى، و أنّ كل مرحلة لها خصائصها و مميزاتها « فالحياة كلها رحلة أو عملية حركة و تغير تتقلب أثناءها كل الظواهر بين الحياة و الموت و العودة إلى الحياة مرة أخرى في شكل جديد.»[2] ثم نذكر أقدم مسافر على وجه الأرض و هو " إبراهيم عليه السلام " بحيث تنقل في البلدان و زار عدّة مناطق و أصقاع، فقد عرف الإنسان العربي منذ ألاف السنين وذلك بحكم طبيعة الحياة التي ترتبط بالماء و الكلأ ناهيك عن حركته الدائمة للرعي و التجارة و الصيد.

نرى أنّ الرحلة سنة كونية، فكل المخلوقات تشترك في هذه المراحل، و هي مراحل الحياة، فالإنسان ينتقل في أغلب بقاع الأرض منذ أنّ خلق أدم عليه السلام بحيث أنّ « السبب الوحيد لشقاء الإنسان هو أنه لا يعرف كيف يستقر هادئا في حجرته.»[3]

تقدم لنا كتب التاريخ أنّ العرب منذ الأزل لهم تجارة نشيطة و سافروا إلى معظم بقاع العالم قبل مجيء الإسلام خاصة مع شعوب إفريقيا، وكانت هذه الأخيرة الأسواق التجارية

---

[1]- القرآن الكريم : سورة الحج ، الآية 5.

[2]- جان بياجيه: أدب الرحلات، مجلة عالم الفكر : المجلد 13 ، العدد 4 ، وزارة الإعلام الكونية ، مارس 1983.ص6.

[3]- المرجع نفسه: ص 4.

الرئيسية التي عادت للعرب بالفائدة خاصة مع الشام و اليمن و العراق، و عن بعض هذه الرحلات يذكر لنا القرآن الكريم رحلات قريش المعروفة، فيقول تعالى: {لإيلاف قريش﴿1﴾إيلافهم رحلة الشتاء و الصيف ﴿2﴾ فليعبدوا ربّ هذا البيت ﴿3﴾ الذي أطعمهم من جوع و ءامنهم من خوف﴿4﴾.} [1]

في كتاب " الرحلات " لشوقي ضيف نجد أنّ للعرب منذ القديم رحلات تجارية مزدهرة خاصة مع العراق و الشام « و كل هذه الرحلات بدأت ضيقة، ثم اتسعت مع مرّ الزمن، إنّ الإنسان و لد راحلا، و إن إعجزته الرحلة، يتخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، و نجد ذلك مبثوثا في الأساطير الأولى كما نجده ماثلا في الحروب و الفتوح القديمة، و ما سطره الملوك الأولى في مصر و غير مصر.»[2]

إنّ تمعنا النظر في قول شوقي ضيف فإن الإنسان رحالا منذ ولادته، و قد عرّف الرحلة قبل مجيء الإسلام سواء كانت تجارية كالتي يقوم بها قريش أو البحث عن الكلأ كالتي عرف بها القبائل و ذكرها الشعراء في قصائدهم الجاهلية كقصيدة امرؤ القيس المشهورة.

" قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل ♣ بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل."

كتب امرؤ القيس قصيدته هذه بعدما عاد إلى المكان الذي كانت حبيبته عنيزة " فاطمة " و استحضر ذكرياته و يذكر الآثار المتبقية بعد رحيلهم إلى مكان أخر بحثا عن الماء و العشب.

و هناك أيضا رحلات الصيد التي اشتهروا بها الملوك و غيرهم و ذلك بحثا عن فريستهم و الاستمتاع في الصيد.

---

[1]- القرآن الكريم : سورة قريش، الآية 1.4.

[2]- شوقي ضيف: الرحلات، فنون الأدب العربي ﴿الفن القصصي ﴾ ، دار المعارف.ط4، ص7.

إن معظم الرحلات التي قام بها العرب كانت معظمها حيوية، خاصة في مجال التجارة، و لكنها مهما بلغت شكلا من أشكال الازدهار إلاّ أنها لا مجال لمقارنتها بالرحلة بعد مجيء الإسلام.

يأخذنا شوقي ضيف إلى الرحلات البحرية المعروفة في القديم، و قد رويت عن الملاحين و هواة البحر. و هي تبدأ «بمغامرات تاجر يسمى سليمان قذف بنفسه في لجج المحيط الهندي و الهادي، ثم تتسع فتشمل مغامرات أخرى في البحرين الأحمر و الأسود، و المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات.»[1]

فهذا يعني أنّ الإنسان منذ القديم و هو مهووس بالمغامرة و" تاجر سليمان " أكبر دليل على ذلك.

ينتقل شوقي ضيف من الرحلات البحرية إلى الرحلات البرية فيقول: «أمّا الرحلات في الأمم و البلدان عن طريق البر و في القوافل فهي كثيرة كثرة مفرطة، وهي أيضا متنوعة، فمنها ما يقف عن بعض البلدان العربية كمصر و منها ما يتجاوز حدود العالم العربي.»[2]

قد أشار شوقي ضيف إلى أنّ الرحلات التي يقومون بها في البرّ كثيرة و مفرطة و حتى منها ما يتجاوز البلدان العربية. « فأكبر رحّالة عرفه الإغريق " هيرودوت" الذي زار مصر و قبرص و فينيقيا و أشور و إيران و توغل في الشمال إلى البوسفور.» [3]

ثانيا: بعد مجيء الإسلام :

مارس العرب قبل مجيء الإسلام، التجارة العالمية و عرفوا المسالك و جالوا في عدّة بقاع العالم، إلاّ أنّ رحلاتهم تلك تفتقد لعدّة معاني، و تنقصها العديد من السلوكات

[1]- شوقي ضيف: ص 1

[2]- المرجع نفسه: ص ص 1.2.

[3]- المرجع نفسه: ص4.

الحضارية، إلى أن جاء الإسلام و كان القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى و كلمة الله إلى كافة البشر داعيا في مواضيع عدّة على السفر و الترحال و البحث و التأمل في آيات الله ، بقوله تعالى:{ قل سيرو في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إنّ الله على كل شيء قدير.}[1]

دعا الله عزّوجل البشرية إلى البحث عن أسباب الرزق الحلال يقول الله تعالى في سورة الملك: {هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه و إليه النشور.}[2]

فإن تمعنا النظر في هذه الآيات الكريمة نجد أنّ الله عزّوجل، سخّر للإنسان الأرض و يدعوا للسير و التنقل فيها بهدف البحث عن قوة يومه و عن سبل الحياة،

تعتبر هذه الدعوات تشجيعا لهم على تحمل المصاعب و مشقة السفر و إبلاغ الرسالة، و نشر الإسلام لا يكون إلاّ عن طريق الانتقال و الحركة من مكان لأخر و قطع مسافات طويلة، و كما نبههم في الوقوع مثل ما وقعت عليهم الأمم العابرة فأهلكهم الله بذنوبهم، لذلك دعا إلى أخذ العبر من أحوالهم، كما نبههم و أشار لهم إلى بعض الوسائل التي تسهل لهم التنقل و الترحال، فيقول عزّوجل: {الله الذي خلق السموات و الأرض و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم و سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره و سخر لكم الأنهار.}[3]

القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى، فقد توجه الله عزّوجل بدعوات إلى المسلمين للسعي في الأرض و السير في البرّ و خوض البحار للانتفاع بالخيرات و تحمل مشاق السفر

[1]- القرآن الكريم : سورة العنكبوت ، الآية 20.

[2]- القرآن الكريم : سورة الملك ، الآية 15.

[3]- القرآن الكريم: سورة إبراهيم ، الآية 32.

و الترحال، فجاءت بعد ذلك الفتوحات التي سيطرة على العالم شرقا و غربا حاملة إليهم أعظم رسالة من الله عزّوجل إلى البشرية كافة.

كانت هذه الفتوحات الإسلامية حافزا على غزو ميادين جديدة، و بابا مفتوحا لمجالات معرفية تحقق الحضور العقلي و الحضاري و تؤسس لبناء دولة متقدمة و متطورة. و هذا ما شجع العرب للغوص و البحث على علوم الأمم الأخرى، و في كل المجالات المعرفية و منها الرحلات التي كانت من أهم مصدر للتطور الأمم و الشعوب، سواء كانت تجارية أو لطلب العلم، أو الحج وهذه الأخيرة هي أحد أركان الإسلام الخمسة يقوم بها المسلم استجابة لله عزّوجل حيث يقول سبحانه: {وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا و طهر بيتي للطائفتين و القائمين و الركع السجود، و أذن في الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضام يأتين في كل فج عميق.} [1]

بينّ الله لنا في هذه الآية الكريمة أنّ الحج فريضة على كل مسلم و مسلمة لمن استطاع إليه سبيل، و قد أقدم المسلمون على تلبية هذه الدعوة بكل حماس و فخر و اجتهاد.

إلى جانب الرحلة الدينية و هي الحج نجد الرحلة لأجل العلم في الإسلام، فقد حرص الإسلام على طلب العلم، و جعل مقام العلماء بعد الأنبياء مباشرة، كما أنه دعا الرسول صلى الله عليه و سلم الناس إلى طلب العلم و لو كان في الصين، و قد استجابوا أيضا إلى هذه الدعوة و أقبلوا عليها رجالا و نساءا، فطلب العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة.

تعتبر رحلات في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم محدودة و ذلك لانشغالهم بتوصيل الرسالة و تثبيت قواعدها، و أشهر الرحلات في تلك الفترة هي رحلة " الإسراء و المعراج " فقد حدثت للرسول صلى الله عليه و سلم عندما سار ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. فقال الله تعالى في سورة الإسراء: { سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد

[1]. القرآن الكريم: سورة الحج ، الآية 27.26

الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آيتنا إنه هو السميع البصير﴿1﴾}[1] بيّن لنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة قدرته و عظمته على النّاس بإسراء عبد له من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي هو من المساجد الفاضلة و هو محل الأنبياء، فقد أسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدا و رجع في ليلته، و أراه الله من آياته ما ازداد به هدى و بصيرة و ثباتا و فرقانا.

هناك أيضا رحلة الهجرة التي قام بها الرّسول صلّى الله عليه و سلّم . مع أصحابه و هي هجرتين الأولى من مكة إلى الحبشة و الهجرة الثانية من مكة إلى يثرب، و رحلة أبى ذر الغفاري لفهم تعاليم و قواعد الإسلام: « في أولى الرحلات في عهد الرّسول صلّى الله عليه و سلّم أثناء وجوده بمكة المكرمة أول مبعثة، و غرضها معرفة مبادئ الدعوة الإسلامية ، وهي رحلة أبي ذر الغفاري إلى مكة المكرمة إبان مبعثه صلّى الله عليه و سلّم للتثبيت مما يدعوه.»[2]

كما أنّ هناك رحلات لمراجعة الأحاديث النبوية، عقب وفاة الرّسول صلّى الله عليه و سلّم. «لم تنقطع الرحلات نظر لتفرق الصحابة في البلدان المفتوحة و استقرارهم بها، فكثرت أسفار بعضهم للبعض الأخر لمراجعة الأحاديث النبوية خشية نسيانها و حفاظا عليها و من أمثلة رحلة جابر عبد الله بن أنيس، و رحلة أبي أيوب لعقبة بن عامر.»[3]

فلقد كان للخلفاء دور كبير في بروز رحلات لها طابع خاص، و لعل أشهرها رحلة سلام الترجمان «التي نالت انتشارا و شهرة واسعة، حيث نجد الجغرافيون المسلمين يصفونها بالأخبار المشهورة، أو مشهورة الأخبار، مما يدل على انتشارها.»[4]

---

[1]- القرآن الكريم: سورة الإسراء ، الأية 1.

[2]- عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية و الأندلسية ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، 1996 ص 42.

[3]- المرجع نفسه ، ص ص 44.45.

[4]- المرجع نفسه : ص 49.

إلى جانب هذه الرحلات التي يقوم الخلفاء على رعايتها، هناك أيضا رحلات البعوث، فمنها رحلة ابن فضلان و سبب هذه الرحلة «هو رغبة ملك " الصقالية "[1]، و قومه في فهم التعاليم الإسلامية الصحيحة، فبعث إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله طالبا انتداب بعض من رجاله لتلك المهمة إلى جانب العناية بتشييد مسجد و منبر و حصن يمتنع به ضد أعدائه المشركين.»[2]

فهذه مجموعة من الرحلات التي قام بها العرب بعد مجيء الإسلام، حاولنا جاهدات أن نحوصلها في بضع صفحات، و كل رحلة و مجالها، سواء في الحج أو العلم، أو التجارة.

✓ أدب الرحلة في العصر الحديث:

عرفت الرحلة العربية خطوة جديدة، كانت منعرجا حقيقيا في مسارها عند احتكاك الرحالة العرب بالحضارة الغربية، و قد تغير بعد ذلك اتجاه الرحلة بعدما كانت تتجه إلى المشرق و المغرب، أصبحوا يتجهون إلى أوروبا، و من أشهر الرحالة في هذا العصر نجد " رفاعة الطهطاوي" بحيث سافر هذا الأخير إلى فرنسا من أجل العلم، و فيها دوّن رحلته «تلك التي سماها " تلخيص الإبريز في تلخيص باريز."»[3]

سجل الطهطاوي رحلته هذه استجابة لرغبة أستاذه العطار الذي «قد أشار عليه بتدوين هذه الرحلة، و تسجيل انطباعاته و أرائه في أثناء مقامه ثمة.»[4]

فأستاذ رفاعة الطهطاوي مولع بسماع عجائب الأخبار، و الإطلاع على عجائب الآثار.

[1]ـ الصقالية : بلاد بين البلغار و القسطنطينية و هم أجناس مختلفة و لهم ملوك فمنهم من ينقاد إلى دين النصرانية اليعقوبية و منهم من لا كتاب له و لا شريعة و هم جاهلون.

[2]ـ عواطف محمد يوسف نواب: ص 52.

[3]ـ عمر الدسوقي : نشأة النثر الحديث و تطوره ، دار الفكر ،القاهرة، دط، 2007 ، ص 30

[4]ـ المرجع نفسه : ص 30.

إلى جانب رحلة الطهطاوي هناك رحلة " لحسين توفيق " التي سماها " بالرحلة إلى ألمانيا "، و رحلات " لمحمد نبيل "، ذكريات باريس " لزكي مبارك" الرحلة الحجازية " لمحمد بن عثمان" ، رحلة المسافات الطويلة ، " لشيخ ناصر العبودي ".

و في العراق نجد " السيد محمود الألوسي أبو الثناء " صاحب التفسير المشهور بروح المعاني، فقد سجل هذا الأخير بعض مقتطفات وصفية على ما رآه في رحلته من مناظر.

و كذلك هناك " رحلة جولة في جزائر البحر المتوسط "، و رحلة " حول العالم في خط منعرج " لشيخ ناصر العبودي ...الخ.

انتشرت مع أدب الرحلات دراسات علمية و أدبية تعالج و تدرس هذا الأدب كشوقي ضيف في كتابة " الرحلات".

ـ فؤاد قنديل في كتابه " أدب الرحلة في التراث العربي."

ـ حسين محمد فهيم، "أدب الرحلات".

ـ حسني محمود حسين، " أدب الرحلة عند العرب".

ـ علي إبراهيم كردي، " أدب الرّحل في المغرب و الأندلس".

ـ ناصر عبد الرّزاق الموافي، " الرحلة في الأدب العربي".

ـ جمال الدين فالح الكيلاني، "الرحلات و الرحالة في التاريخ الإسلامي".

كما أنّ هناك كتب أدب الرحلة التي كتبت في عصر الحديث و هي:

ـ أحمد زكي باشا : " السفر إلى المؤتمر"

ـ أمين الريحاني :" ملوك العرب"

ـ محمد بن عثمان السنوسي " الرحلة الحجازية".

ـ أبي الحسن علي الحسني الندوي: "من نهر كابل إلى نهر اليرموك".

ـ زكي مبارك، " ذكريات باريس ".

ـ محمد محمود الصداف، " رحلاتي إلى البلاد الإسلامية ".

ـ حسن التوفيق " الرحلة إلى ألمانيا ".

ـ محمد شريف " رحلة محمد شريف إلى أوربة "

ـ شيخ ناصر العبودي " جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط."

3 . أهمية الرحلة و أنواعها :

✓ أهمية الرحلة : يعتبر أدب الرحلة من الألوان الأدبية النثرية العديدة إلاّ أنه متميز عن غيره في العديد من النقاط رغم وجود تلك النقاط المشتركة بينه و بين الرواية في السرد و الوصف أحيانا و يتميز برصده للواقع دون اللجوء إلى الخيال إلاّ في محاولة اختيار لأسلوب.

يجد الرحالة المتعة و الترفيه عندما ينتقلون من مكان لأخر و اكتشافهم عادات و تقاليد المجتمعات الأخرى و« يعتبر أدب الرحلات إلى جانب قيمة الترفيهية أو الأدبية أحيانا. مصدرا هاما للدراسات التاريخية المقارنة و ذلك خاصة بالنسبة للعصور الوسطى.»[1]

[1]ـ مجدي وهبه ﴿كامل المهندس﴾: معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، ص 17.

عرفت الموسوعة العربية العالمية « أن أدب الرحلة هو الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث و صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان.»[1]

و من فوائد و أهمية أدب الرحلات، القيمة التعليمية التي يختزنها، تثقف القارئ و تثري فكرة و معلوماته عن منطقة ما أو مجتمع ما.

يقول شوقي ضيف في كتابه الرحلات: « إنّ الرحلات من أهم فنون الأدب العربي، السبب البسيط، و هو أنها خير ردّ على التهمة التي طالما أنهم بها هذا الأدب، و نقصد تهمة قصور في فنّ القصة و من غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرأ ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية و عرائس البحر و حجاج الهند، و آكلة لحوم البشر و صناع الصين و سكان نهر الفولجا و عبدة النار و الإنسان البدائي و الراقي مما يصور الحقيقية حينا، و يرتفع لنا إلى عالم خيالي حينا أخر.»[2]

- ✓ أنواع الرحلات: عرف المغاربة أنواعا كثيرة من الرحلات، فأبدعوا في كتابتها وصفا و تسجيلا، فحاول الدارسون تصنيفها و تحديدها، لكنهم اختلفوا في تصنيفاتهم لها.

فعين " صلاح الدين الشامي ستة أنواع للرحلة، ثلاثة منها ظهرت قبل الإسلام، و هي: «رحلة التجارة، و رحلة الجهاد، و رحلة السفارة، والثلاثة الأخرى ظهرت بعد الإسلام و هي رحلة الحج رحلة طلب العلم رحلة التجوال و الطواف.»[3]

يقول صلاح الشامي: « أن الرحلة اعتبارا من القرن السادس الهجري " العاشر ميلادي" انطلقت على أوسع مدن، و تجاوزت ديار المسلمين، تأمل في تحقيق أهداف متنوعة، بحيث

---

[1]- الموسوعة العربية العالمية : دت، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، الرياض، ط2، ص139.

[2]- شوقي ضيف أدب الرحلات: ص 6.

[3]- ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، القاهرة، ط1، 1995، ص 32.33.

اقتصادية و هي تعمل لحساب التجارة، و دينية و هي تعمل لحساب فريضة الحج، و إدارية تعمل لحساب العلاقات بين الدول الإسلامية، و مجتمع الدول الخارجية، أما علمية فهي تعمل لحساب العلم و طلب المعرفة.»[1]

نجد عند " محمد الفاسي" الذي يعدد أنواع الرحلة من خمسة عشر رحلة و هي: « رحلات حجازية و سياحية، رسمية، دراسية، الأثرية، الاستكشافية، الزيارية، السياسية، العلمية، المقامية، البلدانية، و الخيالية، الفهرسية، العامة و السفرية. »[2]

ـ الرحلات الدينية : يعتبر الحج الدافع الأساسي لدى المغاربة للقيام برحلات، لأنهم كانوا أبعد الناس عن الحجاز، من جهة الغرب فكان شوقهم لأداء الفرائض و زيارة قبر الرّسول صلّى الله عليه و سلّم أعظم من غيرهم و كانوا يتحملون في سبيل ذلك مشاق السفر ، و فيه تراكم الكيفي و الكمي، « يعد الصنف الأول من الكتابة فيعتبر الحج من أهم العوامل التي دفعت بالمسلمين من كل فجّ عميق إلى الرحلة و التنقل، أمّا النوع الثاني فيها رحلات صوفية زيارية و هذا طابع ديني و روحي و يتمثل في زيارة العباد و الزهاد و الوعاظ . »[3]

يعتبر أبو بكر الهروي المتوفى سنة 611هـ الموافق لـ 1215مـ «أشهر الرحالين المختصين في المزارات المتبرك بها و قد دوّن تنقلاته تحت عنوان " الإشارات إلى معرفة الزيارات " و هو دليل على الزيارة الأضرحة و المقامات المشيدة في البلدان الإسلامية و من بينها لا تخلو كتابة من إفادات جغرافية و تاريخية عن الأقاليم التي مرّ بها.»[4]

---

[1]ـ صلاح الدين الشامي: ص 114.

[2]ـ محمد بن عثمان المكناسي: الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب ، د.ت، من المقدمة نشأة المعارف، الإسكندرية 1989. ص 112.114

[3]ـ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب. في العصر المريني، ج1، ص 39.

[4]ـ جميلة روباش: أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم، كلية الآداب واللغات، دفعة 2015/2014 ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، ص 26.

ـ الرحلات العلمية: وتعود فترة نشأة الرحلة في طلب العلم «إلى بداية انتشار الإسلام، فارتحل المغاربة منذ عهد مبكر إلى المشرق لأهداف تعليمية »[1]

فالرغبة في طلب العلم هي استجابة لدعوة الشارع إلى التعلّم و أبرزها هي ما نسبه الربيع بن سليمان إلى شيخه الإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة 204هـ و ما رواه عنه بحيث قال: « و أقبلت أطوف العراق و أرض فارس و بلاد العجم و ألقى الرجال حتى كتبت و أنا ابن إحدى و عشرين سنة.»[2]

من رحلات الغرب الإسلامي ما « اتسمت بالطابع العلمي التوثيقي، يمكن أن نلاحظ هذا في رحلات، ابن رشد، العبدري، التيجيبي، البلوي.»[3]

قد أشار إليه عبد الرحمان ابن خلدون في كتابه " المقدمة " الشهيرة بحيث قال: « و الرحلة لا بدّ منها في طلب العلم و لا اكتساب الفوائد و الكمال بلقاء المشايخ و مباشرة الرجال.»[4]

الهدف من الرحلة هو التزويد بالعلم و مقابلة الشيوخ من العلماء، و لقد كانت الرحلات في العصور الإسلامية معيارا للحكم على مستوى العلماء.

ـ الرحلات التجارية: منذ القديم و التجارة كانت أمرا يقتضي القيام بها و لا تكون هذه الأخيرة إلا عن طريق الرحلة و التنقل البعيد من أجل تأمين سبل الحياة و الكسب، ثم

---

[1]ـ إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ، رسالة دكتوراه ، جامعة باتنة، دفعة 2006/2005، ص 19.

[2]ـ محمد بن إدريسي الشافعي: رحلة الشافي ، نشر محي الدين الخطيب، ،المطبعة السلفية ، القاهرة،دط، 1350هـ ، ص 18.

[3]ـ الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني ، ج1، ص 80.

[4]ـ ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون بيت الفنون و العلوم و الأدب ، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2005، ص 226.

إنّ الموقع الإستراتيجي للبلاد العربية و كونها مركزا للالتقاء الطرق التجارية بين القارات، و هذا ما شجع العرب على ممارسة الترحال من خلال ما يسمى " برحلتي الشتاء و الصيف ".

أما عند المغاربة فقد قاموا برحلات من أجل التجارة، و هم أولئك الرحالة الذين جابوا البحار و المحيطات، ينقلون و ينتقلون من بلد إلى أخر حاملين معهم بضائعهم للتجارة.

ـ الرحلات السياحية: سعى بعض الرّحالة إلى البحث عن الحرية و الاجتياز المكاني لأن الأساس عندهم هو السفر و التنقل بين المكان الذي يرتحل إليه و هدفهم في هذه الرحلة هو «التمتع بالحياة و الوصول إلى مواقع الجمال في كلّ نواحي المكان، و الرغبة في الاكتشاف ما لم يرونها سابقا فالرحالة يقوم برحلته برغبته هو بدون ضغوطات تدفعه إلى تلك الرحلة.»[1]

لذلك جاءت بعض الرحلات لارتياد الأماكن و وجوب الأفاق و الترويح عن النفس و معرفة أشياء عن ذلك البلاد بدافع رغبة ذاتية و بذلك يطلع على الحضارات بثقافتها المتنوعة و عاداتها و تقاليدها و كل ما يخص ثقافة ذلك البلاد.

ـ الرحلات الرسمية: يعتبر هذا النوع من الرحلات التكلفية و الإدارية و السفارية و هي خاصة بدوافع عديدة منها: « تفقدّ أمر الرعية، أو تلبية طلب الحاكم في معاينة أماكن مجهولة أو بعيدة أو الإتيان بأخبارها ، فقد تكون في إطار التجسس أو الاستطلاع. »[2]

عدّت السفارة الشكل الرسمي للرحلات، حيث يوكل بها الرّحالة من قبل الحاكم و هي الرسالة التي يتنافس على أدائها من يتكلفون بها، فالسفير ممثل لدولته و عنوان للإزدهارها.

[1] ـ حسين نصار: أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، مصر،ط1،1991، ص5.

[2] ـ سميرة أتساعد: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة و التطور و البنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، 2006/2007، ص 20.

رحلة السفارة وليدة التقدم الحضاري ، و نشوء الدول التي كانت ترسل مندوبين رسمين نيابة عنها و من أجل التفاوض فيما بينها ، و كان هذا التفاوض يطول مجالات شتى ، بل إنّ الدولة كانت تتبني رحلات أخرى منظمة ، كرحلات البريد و تبسط عليها سلطاتها رغم أنها لا تتخذ شكل السفارة .

لذلك البديل المطروح" لرحلة السفارة هي الرحلة الرسمية و هو إسم أعمّ و أشمل من الأول.

. رحلة الجهاد: رحلة الحرب سميت في الإسلامي برحلة الجهاد. و الجهاد فريضة دينية على المسلم توفرت فيه شروط بعينها، و شبّهها في هذا إلى حدّ ما، رحلة الحج التي هي أيضا فريضة دينية. و لذا يمكن جمعها في نوع واحد هي " الرحلة الدينية ".

. رحلة التجوال و الطواف: لا يمكن أن تستقل هذه الرحلة بذاتها لأنها مضمنة في الرحلات السابقة جميعا فقد يكون هذا المتجول محاربا تاجرا عالما و الذي يخرج من أجل التجول كهدف كان تجوله استجابة لدافع ذاتي بيدي أن هذا لم يكن ليقبل منه في عصره، و كان عليه أن يختار نوعا من الأنواع السابقة.

- ✓ دوافع الرحلة: الإنسان فضوليّ بطبعه، يحب الاستكشاف و المغامرة و هذا ما جعله كثير الحركة و التّرحال، و هذا مايجعلنا نتساءل، هل يمكننا القول بأنّ تطور الإنسان مرتبط بترحله من مكان لأخر؟ و هل نستطيع الجزم بأنه لولا تنقل الإنسان بين مختلف الأصقاع لما تغير تاريخ العالم؟ هي أسئلة تدوراني في أذهاننا، و نحن نرصد العوامل و المؤثرات التي تحث الإنسان على الإرتحال أو الهجرة من الجزائر إلى غيره، و ما من شكّ أن معرفة الأخر و إستكشاف العالم المحيط بنا يشكل أبرز دوافع هذا التنقل، إلاّ أن حب المغامرة وراء المجهول، أو تحقيق أهداف مادية أو مثالية يظلان

دافعين حاضرين في أغلب ما تقوم به من رحلات، ومن بين الدوافع التي تحث الإنسان و تشجعه على الرحلة و التنقل من مكان لأخر نذكر:

. الدافع الديني: يعتبر الدافع الديني من أقوى الدوافع المحركة للرحلات. فكانوا الناس يرتحلون لزيارة الأماكن المقدّسة عند بيت الله الحرام و الدعوة لحج بيت الله قديمة منذ أيام إبراهيم خليل الله عليه السلام، و لما جاء الإسلام ألزمهم به مرّة في العمر إذا استطاع. قال الله تعالى: {فيه ءايات بينات مقام إبراهيم و من دخله كان ءامنا و الله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين.}[1]

ـ دوافع علمية: من بين الرّحالين الذين رحلوا بدافع علمي و البحث و التحقيق عن شيء ما نجد عبد الله بن عباس. و الإمام الغزالي، فقد كانت القيمة العلمية الهدف أو الدافع أمام مجموعة من الرحالين « فقد تأنت لها مما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية و التاريخية و الإجتماعية و الإقتصادية و غيرها، مما يدونه الرّحالة تدوين المعاين في غالب الأحيان من جراء إتصاله المباشر بالطبيعة و بالناس و بالحياة خلال رحلته.»[2]

هذا يعني أنّ هناك مجموعة من الرحالين هدفهم طلب العلم و الإستزادة في مناطق مختلفة وتختلف المجالات بإختلاف العلوم كالفقه و الطب و الهندسة و العمارة و الكشوفات الجغرافية. مثل " ابن بطوطة " و من هذه الناحية « فإنّ من المتفق عليه أنّ الرحالين العرب قدموا على، على مرّ العصور، خدمات جلي في دراسة أحوال البلاد العربية و الإسلامية من مختلف نواحيها ... فأمدونا عنها بمعلومات من الدرجة الأولى خصوصا إذا قورنت هذه

[1]ـ القرآن الكريم: سورة آل عمران، الآية 97.

[2]ـ حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1983، ص 6.7.

المعلومات بما كان يعرفه العالم عنها في العصور الوسطى حتى الكشوفات الجغرافية المتأخرة لدى الأروبين.»[1]

من أشهر الرحلات العلمية هي رحلة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام ليتعلم منه قال تعالى: { فلمّا بلغا مجمع بينها نسيا حوتهما فاتّخذ سبيله في البحر سربا ﴿61﴾ فلما جاوزا قال لفتاه ءاتنا غدآنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴿62﴾ قال أرءيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره و اتّخذ سبيله. في البحر عجبا ﴿63﴾ قال ذالك ما كنا نبع فارتدّا على أثارهما قصصا ﴿64﴾ فوجد عبدا من عبادنا ءاتيناه رحمة من عندنا و علمناه من لدنا علما ﴿65﴾ قال له موسى هل أتبعك على تعلّمن ممّا علمت رشدا ﴿66﴾ قال إنك لن تستطيع معي صبرا ﴿67﴾ و كيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴿68﴾ قال ستجدني إن شاء الله صابرا و لا أعصى لك أمرا ﴿69﴾ قال فإن اتبعتي فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴿70﴾ فإنطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتفرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ﴿71﴾ قال ألم أقل إنّك لن تستطيع معي صبرا ﴿72﴾.}[2]

هذه الآية تقدم لنا رحلة موسى عليه السلام مع الخضر و كيف يعلمه أولا الصبرا ثم تليها أشياء أخرى.

إلى جانب عبد الله بن عباس و الإمام الغزالي هناك أيضا ابن حوقل فهو من جغرافي القرن الرابع الهجري « نشأ في بغداد، و قرأ ما سبقه، و عاصره من كتب جغرافية، وشهد بهذا العالم، فصمم على أن يضع فيه كتابا لا يأخذه من أفواه الناس و لا مما قرأه، و إنما

[1]- حسني محمود حسين: ص 8.

[2]- القرآن الكريم : سورة الكهف، الآية 60.72.

يأخذه عن عينه و مشاهداته في العام الإسلامي ، فطاف بهذا العالم ثلاثين سنة ثم وضع كتابه "المسالك و الممالك". »[1]

هذا يعني أنّ هناك من الناس ما لايهمه ما يقوله غيره أو يقرأه عن غيره قدر الذي يهمه ما يستنتجه هو بحدّ ذاته باحتكاكه للواقع.

ـ دوافع سياحية و ثقافية : يحب الإنسان التنقل و معرفة الجديد من خلف الطبيعة و البشر و اكتساب الخبرة فهذا دافع يحفز على الترحال و البحث عن هذه الأشياء، « فالرحلة في البحر حينئذ تعد متعة حقيقية، لما تحمل الملاحين و المسافرين من مفاجآت في رؤية شعوب غريبة و بلاد عجيبة، بالإضافة إلى ما يحمله الماء نفسه من أسماك و حيوانات بحرية كبيرة و طيور مختلفة ألوانها و حجومها.»[2]

ـ دوافع سياسية: بما أنّ للإنسان دوافع تجعله ينتقل من مكان لأخر، فالسياسة تعتبر دافع أيضا من بين الدوافع التي تحرض الإنسان إلى الحركة و الترحال. « كالوفود و السفارات التي يبعث بها الملوك و الحكام إلى حكام الدول الأخرى، لتبادل الرأي و توطيده العلاقات أو لمناقشة شوؤن الحرب و السلام أو تمهيدا لفتح أو غزو.»[3]

ـ دوافع إقتصادية: من المعروف في القديم أنّ التجارة هي المبدأ الأساسي لحياة الإنسان فبه يقتات لقمة عيشه و لهذا فهي دافع من دوافع الرحلة فالاقتصاد يقوم على التجارة « و تبادل السلع أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية، أو لجلب سلع تتوافر

[1]ـ شوقي ضيف: ص12.

[2]ـ المرجع نفسه: ص28

[3]ـ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ، 2002.ص 20.

في بلاد أخرى و تندر في بلد المسافر، و قد يكون هربا من الغلاء و سعيا وراء الرخص و اليسر و الوفرة أو للعمال»[1]

ـ دوافع صحية: كالسفر للعلاج في مناطق بعيدة أو « إراحة النفس من ألوان العناء و تخليصها من الكدر كالارتحال إلى المناطق الريفية و نحوها، و قد يكون هربا من وباء أو طاعون أو تلوث.»[2]

ـ دوافع أخرى: و من بين هذه الدوافع التي تحث الإنسان على التنقل و الترحال يمكن أيضا أن نجد أسباب أخرى كالسخط على الأحوال الجوية، و ضيق العيش أو الهروب من عقوبة ما.

4 . أعلام أدب الرحلة ﴿ابن جبير.﴾

أدب الرحلة حسب توضيح" مجيدي وهبة " هو « تلك المؤلفات التي تتحدث عن مغامرات واقعية قام بها الرحالة، و تعرف من خلالها على أحوال البلاد التي زارها و عادات أهلها و سلوكهم و التي تركت في نفسه انطباعات عدّة نقلها لنا من خلال مؤلفه.»[3]

من بين الرحالة العرب الذين قاموا بالانتقال من مكان لأخر من أجل أسباب عدّة و متغيرة حسب الأشخاص نذكر: " ابن بطوطة 703هـ/779هـ "،"ابن فضلان ولد في القرن العاشر ميلادي "،" العلاّمة الإدريسي 493هـ /560هـ "،" ابن جبير 540هـ /614هـ ". و هذا الأخير هو موضوع مذكرتنا .

[1] ـ فؤاد قنديل: ص 20.

[2] ـ المرجع نفسه: ص 20.

[3] ـ مجدي وهبة: كامل المهندس، معجم مصطلحات العربية في اللغة و الأدب، ص 17.

- ابن جبير 539هـ /614هـ: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلسي، الشاطبي، البلنسي، و لد في بلنسية و سمع العلوم من أبيه في شاطبة، و أخذ القرآن عن أبي الحسن بن أبي العيش .

كان من علماء الأندلس في الفقه و الحديث، و كانت له مشاركة في الأدب و صفه لسان الدين بن الخطيب في كتابه " الإحاطة في أخبار غرناطة " بأنه كان أديبا بارعا، شاعرا مجيدا، سرى النفس، كريم الأخلاق، و لكن شهرته لم تقم إلاّ على كتابة هذا المعروف: " إبن جبير " الذي وضعه بعد أن قام برحلات ثلاثة أهمها رحلة استغرقت أكثر من ثلاثة سنوات، بدأها يوم الإ ثنين في التاسع عشر من شهر شوال سنة 578 هـ الموافق ليوم الثالث من شهر شباط سنة 1182م ، و ختمها في يوم الخميس العشرين من شهر نيسان سنة 1185م، وقد وصف في هذه الرحلة كل ما مرّ به من مدن و ما شاهده من عجائب البلدان، و غرائب المشاهد و بدائع المصانع و الأحوال السياسية و الإجتماعية و الأخلاقية و في عناية خاصة يوصف النواحي الدينية و المشاهد و قبور الصحابة، و مناسك الحج و مجالس الوعظ و المستشفيات و المارستانات.

وصف كذلك الكنائس و المعابد و القلاع و العواصف البحرية، و ما كابده المسافرون من ذعر و ضيق. وذكر الحروب التي كانت دائرة في الشرق بين الصلبين و المسلمين و ما كان عليه الأهالي، من مسلمين و مسحيين، من علاقات حسنة في خلال تلك الحروب و وصفه لكل ذلك دقيق يدّل على دقة ملاحظته و سعة علمه.

كما كان شديد الإعجاب بالسلطان " صلاح الدين الأيوبي" عظيم الإكبار له، فلا تمر سائحة إلاّ بيّن فيها ما كان عليه هذا السلطان العظيم من العدل و نبل الأخلاق، و كرم السجايا.

يعتبر ابن جبير ذا عاطفة قوية دينية، يختم كل الكلام بدعاء إلى الله تعالى و التّوكل عليه جلّ جلاله، و هذه العاطفة المتدفقة دفعته إلى إرسال الأدعية للمدن التي مرّ بها فمنها ما يدعو لها " بحسرها الله، و عمرّها الله، و" حماها الله " و ما شابه، و قد كان يفتتنه كل ما يشاهده، فكل مشهد " يقيد الأبصار و يستوقف، المستوقر تعجبا ".

و تحول في أخر رحلة التي بها إلى مصر و الإسكندرية فأقام يحدث هنالك إلى أنّ توفي.

تعتبر رحلته هذه كتاب نفيس في بابه لا غنية عنه للمؤرخين و الجغرافيين و كل من أراد الإطلاع على أحوال تلك الحقبة، و قد اهتم به المستشرقون فترجم القسم المختص منه بصقلية إلى الفرنسية و طبع سنة 1846م. و طبع كله لأول مرّة في لندن سنة 1802م مع مقدمة المستشرقين، و أعيد طبعه هناك أيضا في سنة 1907م. [1]

[1]- إبن جبير : رحلة إبن جبير ، تذكرة بالأخبار عن إتفاقات الأسفار ، دار صادر بيروت، ص.5.6.

الفصل الثاني: جمالية أدب الرحلة

1. مكونات أدب الرحلة.

- الرحالة.
- المحكي عنه.
- المحكي أو الحكاية.

2. خصائص كتابة أدب الرحلة.

- الذاتية.
- الحكي بضمير المتكلم مفردا أو جمعا.
- الواقعية.

3. جمالية أدب الرحلة.

- جمالية المكان في رحلة ابن جبير.
- الأماكن المغلقة في رحلة ابن جبير.
- الأماكن المفتوحة في رحلة ابن جبير.
- تحليل الرحلة الأولى لابن جبير.
- تحليل الرحلة الثانية لابن جبير.

4 . دلالات وصف أماكن في " رحلة ابن جبير".

1- مكونات أدب الرحلة:

الرحلة عبارة عن حكي، و كل حكيّ يستلزم وجود أطراف ثلاثة: ذات حاكية، ذات حكي، و موضوع محكي عنه، و يمكن توضيح هذه المكونات في هذا الشكل.

الحاكي ← المحكي ﴿الحكاية﴾ ← المحكي عنه.

↓ ↓ ↓

المؤلف. الخطاب الرحلي. السفر.

- ✓ الرّحالة : يعتبر الحاكي أو الراوي في الرحلة هو المؤلف نفسه و هو الذات المركزية ، التي تقوم بدورها بذات الحركة، و هذه الذات تقوم بتلفيظ تلك الحركة بإنتقالها عبر الأماكن المزورة، و لا تنفصل عن ثقافتها و معتقداتها و رؤيتها للعالم و نشأت الرحالة نشأت المساح الذي قال عنه الأستاذ " عبد الفتاح كيليطو ": «إنّ المساح ليس مسافرا بدون أحمال، فهو يحمل أدوات تلازمه تنظم عمله، و الفضاء الذي يخترقه ليس مرتباّ إلاّ عبر عيون شبكة ثقافية تحصره حصرا وثيقا.»[1]

لهذا نجد الذات حاضرة باستمرار يمر من خلالها الحكي " الحكاية "، فينطوي بأحاسيسها و ميولاتها و عواطفها و مرجعيتها الثقافية، و هكذا عندما يرحل الرحالّة، لا يرحل بجسده فقط، بل بعقله و فكره و قلبه ووجدانه.

[1]. عبد الفتاح كيليطو: المقامات، السرد، و الأنساق الثقافية، تر عبد الكبير الشرقاوي، دار البيضاء 05 . المغرب، الطبعة2،1995، ص 15.

نجد عنصر الحاكي في " رحلة ابن جبير "هو" ابن جبير " بحدّ ذاته، و هو المؤلف نفسه، و الذات المركزية و هو الشخصية المهيمنة في الرحلة.

فابن جبير هو الذي يقوم بذات الحركة، كما يتضح لنا في تحليل رحلته الأولى في كتابه بأنها ابتدأت يوم الجمعة من شهر شوال التي هي" تذكرة بالأخبار، عن اتفاقات الأسفار" بحيث كانت ذاتية ابن جبير قد انفصلت من غرناطة «و كان انفصال أحمد بن حسان و محمد بن جبير من غرناطة، حرسها الله لنية الحجازية المباركة »[1].

كان الرّحالة شبه تلك الساعة بالتيسير و الصنع الجميل، بحيث كان يصور لنا المشاهد بكل ساعة مرّ بها و يوم اجتازه من رحلته و من مكان الذي مرّ به.

استعمل الرّحالة ضمير المتكلم " نحن " مثل: « و كانت مرحلتنا الأولى إلى حصن قبذان ثم منه إلى حصن قبران...، و أقلعنا ظهر يوم الخميس... كان طريقنا في البحر محاذيا... و فرقناه يوم الخميس... و طرأ علينا من مقابلة البرّ في الليل هول عظيم...، فأخرجنا عنه فأخذنا عند ذلك في الإتباع أثره، و الله الميسر لا ربّ سواه... و في ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال...، و ارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا.»[2]

[1]- ابن جبير: ص7.

[2]- المصدر نفسه: ص ص ص7.8.9.

عندما عصفت عليه تلك الرياح القوية فهال البحر عليهم و المطر الذي كأنه شأبيب سهام فحلّ اليأس بالرّحالة وأصحابه حتى اليوم الموالي الذي كان فرجة عليهم و اطمئنان رغم أنّ في مساء ذلك اليوم عاد البحر إلى هوله و سواده ما جعل الرّحالة يدعو إلى الله لتيسير حالهم، و عند وصولهم إلى برّ جزيرة صقلية استعمل أيضا ضمير " نحن " بين ذلك في قوله: « بتنا تلك الليلة التي هي ليلة الخميس التالية لليوم المذكور.»[1]

كانت دائما عاطفته تعيش بين اليأس و الرجاء بسبب سوء أحوال الطقس و لكن بدعائهم لله و إ يمانهم به تلاقوا بيوم جميل ألطف الله رحمته بهم و نعمته.

نزل ابن جبير و أصحابه بفندق السفارة و كان ما لفت انتباهه هو أمناء الذين اطلعوا عليهم في المركب عند نزولهم لتفتيشهم، استهوى ابن جبير عند وصوله الى الإسكندرية وضع البلد و اتساعه يقول: « إنّ ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منهم و لا أعلى مبنى و لا أعتق منه.» [2]

نجد أيضا في رحلته الثانية التي استعمل ضمير" نحن " في قوله: « كان رحيلنا في المدينة المكرمة الى العراق قرب الله لنا المرام وسهل علينا السبيل واستنصحينا منها الماء لثلاثة أيام»[3]

[1]. ابن جبير: ص 11.
[2]. المصدر نفسه: ص14.
[3]. المصدر نفسه: ص 181.

ظهر ضمير " نحن " و هو الذات في هذه الرحلة " رحيلنا "،" استصحبنا "، فقد تحدث بإسم الجماعة و قدم لنا معلومات عن رحلته في قوله: « و صعدنا من وادي العروس إلى أرض نجد وخلفنا تهامة و راءنا، و مشينا في بسيطة من أرض ينحسر الطرف دون أدناه و لا يبلغ مداها، وتنسمنا نسيم نجد و هواءها المضروب به المثل، انتعشت النفوس و الأجسام ببرد نسيمة و صحة هوائه. و نزلنا يوم الثلاثاء رابع يوم رحيلنا...»[1]

نلاحظ أن في" رحلة ابن جبير " هو الحاكي الحاضر باستمرار من خلال حكيه، فنجده يقدم لنا ميولاته و عواطفه و أفكاره.

- ✓ المحكي عنه : و هو « السفر الذي أنجزه الرحالة فعليا و حديث الرحلة عن السفر جعلها المحكي عنه تنتمي إلى أدب السفر، و لكنها تختلف عن بعض أنماطه التي وظفت السفر بشكل أخر.

هكذا يصبح السفر بنية مهيمنة من جهة، و هي من جهة أخرى بنية متحكمة و جاذبة لباقي البنى إلى الحدّ الذي تخضع فيه هذه الأخيرة لبنية السفر.»[2]

بهذه الهيمنة التي تتمتع بها بنية السفر داخل الكتابة الرحلية و يصبح السفر هو النظام لمختلف مكونات الرحلة الأخرى من سرد و وصف و أخبار و حكايات و أشعار و معارف متنوعة بيدى أنه ينبغي الانتباه و التفريق بين السفر عندما يكون بنية و مكونات كباقي

[1]. ابن جبير: ص 181.

[2]. عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، دار الثقافة، دار البيضاء، ط1، 1996، ص ص 26.35.

المكونات في الحالة الأولى تكون أمام جنس رحلة. و في الحالة الثانية نكون أمام أجناس أخرى، قد تكون تاريخيا أو سيرة ذاتية... أو غيرها، و هكذا أصبحت هيمنة بنية السفر « معيارا نقديا يتم فيه التميز بين الرحلة و باقي النصوص و السفر و بين الرحلة و " الحركة " و بين الرحلة و الدليل السياحي.»[1]

هذا يعني أن للتمييز بين النص الرحلي و النصوص الأخرى ما على الرحالة إلا القيام بهيمنة و توضيح نية السفر بحيث تشترك مكونات الأدب الرحلي بمكونات القصة و السيرة الذاتية و هذا قد يؤدي بالاختلاط بهما.

نجد العديد من الأمثلة في" رحلة ابن جبير "حول عنصر " المحكي عنه " فمثلا عندما انتقل من المدينة إلى العراق قدّم لنا ما عاشه منذ انطلاقه من المدينة إلى غاية وصوله إلى العراق فهو السفر فيه حركة و انتقال و هو العنصر المهيمن فيه فيقول في بداية رحلته: « و في ضحوة يوم السبت الثامن المحرم المذكور، و الحادي و العشرين من شهر أبريل، كان رحيلنا من المدينة المكرمة إلى العراق.»[2]

فصّل لنا الرّحالة ابن جبير عن المحكي عنه و هو الانتقال من المدينة المكرمة إلى العراق ثم قدّم لنا بعد وصوله إلى بغداد مدينة السلام حرسها الله تعالى: «هي المدينة

[1]. عبد الرحيم مودن: ص 21.

[2]. ابن جبير: ص181.

العتيقة، و إن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، و مثابة الدعوة الإمامية القريشية الهاشمية، قد ذهب أكثر رسمها و لم يبقى إلاّ شهير اسمها.»[1]

✓ المحكي أو الحكاية :

هو خطاب الرّحلة و من المعلوم أن لكل خطاب طريقة الخاصة في البناء، بما يتميز عن غيره من الخطابات، و بما أنّ خطاب الرحلة موضوعة هو السفر الذي قام به الرحالة، فإن خطاب الرحالة يتماشى مع الرحلة و عوالمها و يسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية فهو ينطلق من تحديدا أسباب الرحلة و دوافعها، و زمن الخروج و مكانة، و كلما انتقل الرحالة في المكان واكب الخطاب هذه التحولات، وصولا إلى النهاية الرحلة، و الرجوع إلى نقطة الانطلاق.

بهذه المواكبة يكون خطاب الرحلة هو«عملية تلفيظ لفعل الرحلة، و بعملية التلفيظ هذه يختلف خطاب الرحلة من غيره من الخطابات المجاورة التي تقوم على أساس فعل الرحلة و لكنّها تستثمر جوانب منّها و توظفها في استخدامها في خطاب مختلف» [2].

لا شك أن طبيعة الحياة العربية الإقتصادية و تطورها دفعت الإنسان للانتقال و السفر وراء سبل العيش و البقاء.

[1]. ابن جبير: ص193.

[2]. سعيد يقطين: السرد العربي، مفاهيم و تجليات، رؤية النشر و التوزيع، القاهرة،ط1، 2006، ص 200.

تعددت الدوافع و الأسباب للرحلة و الانتقال من مكان إلى أخر و من بلد إلى أخر و لكن تختلف من شخص لأخر، فمنها ما يكون بدافع ديني أو علمي أو سياسي...

يعد المقصد الأساسي في رحلة ابن جبير مقصد ديني و هو أداء شعائر فريضة الحج الركن العبادي الخامس من أركان ديننا الحنيف، و كان الحج من أهم العوامل التي شجعت المسلمين على الرحلة و الانتقال.

بدأ رحلته يوم « الاثنين في التاسع عشر من شهر شوال سنة 578هـ، الموافق ليوم الثالث من شهر شباط سنة 1182مـ، و ختمها يوم الخميس الثاني و العشرين من شهر محرم سنة 581هـ الموافق لليوم لخامس و العشرين من شهر نيسان سنة 1185مـ.»[1]

- بناء الخطاب في الكتابة الرحلية:

- ✓ المعرفة: « تزخر الرحلات بالعديد من المعارف المتنوعة منها ما هو ديني، و ما هو تاريخي، و ما هو جغرافي و أدبي و اجتماعي... مم يجعل هذه الرحلة وجهة للعديد من الباحثين المختلفي المشارب من أجلي منح المعارف التي تهمهم، و تقديم المعارف في الرحلات ليس مستغربا لأننا نجد كثير من الرحلين ينهون في مقدمات

[1]. ابن جبير: ص 5.

رحلاتهم على أنّ مقصديتهم هي إفادة القارئ بكثير من المعارف و الإفادات و بهذا تحقق الرحلة هدفها الديداكيتكي»[1].

✓ السرد :«لا تنفك الكتابة الرحلية عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه مادامت تنقل إلى المتلقي أحداثا و أفعالا قامت بها الذات الكاتبة.»[2]و هذه الأحداث و الأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها.

السرد « يبدأ مع بدأ الرحلة، و يستمر إلى نهايتها و هذه المسيرة السردية تتكون من مقاطع سردية دائمة الحضور في كل الرحلات و مقاطع سردية تحضر في بعض الرحلات و تغيب أخرى و المسيرة السردية في الرحلات تتخللها محطات يتوقف فيها السرد ليفسح المجال لمكونات أخرى بإشتغال، و هكذا يوقف الراوي السرد ليقدم وصفا أو يقدم معلومات و معارف أو ينظم شعرا و بعد الانتهاء من هذا يعود السر إلى جريانه.»[3]

من النماذج على أسلوب السرد في رحلة ابن جبير عديدة فنجد في قوله مثلا عند تعظيمه أهل مكة لليلة النصف من شعبان « و هذه الليلة المباركة، أعلى ليلة النصف من شعبان، عند أهل مكة معظمة لأثر الكريم الوارد فيها إلى أعمال البر، من العمر

[1]- www.café. Umontreal.ca/genres/n.voyage.html.

[2]- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، الكتابة و الشعر، تح علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1986م، ص 128.

[3]- المرجع نفسه: ص 128.

و الطواف، و الصلاة إفرادا و جماعة، فيقسمون في ذلك أقساما مباركة، فشاهدنا ليلة السبت، التي هي ليلة النصف حقيقة، احتفالا عظيما في الحرم المقدس إثر صلاة العتمة جعل الناس يصلون فيه جماعات جماعات، تراويح يقرؤون فيها بفاتحة الكتاب و بقل هو الله أحد، عشر مرات في كلّ ركعة إلى أن يكملوا خمسين تسليمة بمئة ركعة.»[1]

تظهر جمالية السرد بوضوح في رحلة ابن جبير في نصوص عدّة أهمها ما ذكره في فضائل " السلطان صلاح الدين الأيوبي " و ما ذكره من صور معتمدة من مدينة بغداد و الكوفة، فعلى سبيل المثال نأخذ هذا المقطع السردي عن مدينة بغداد و أهلها «هذه المدينة العتيقة، و إن لم تزل حضرة الخلافة العباسية و مثابة الدعوة الإمامية القريشية الهاشمية قد ذهب أكثر رسمها، و لم يبقى منها إلاّ شهير اسمها و هي بالإضافة ما كانت قبل إنحاء الحوادث عليها و التفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس... »[2]

- ✓ الوصف : السرد و الوصف يعتبران نمطا خطابين يتناوبان على طول الخطاب الرحلي فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرك و يصف حين يتحدث عن الساكن بعبارة أخرى « يتم السر بالحديث عن الفعل في الزمن و يتم الوصف بالحديث عن المكان أو الأشياء أو الأشخاص، و الوصف يتطلب

[1]. ابن جبير: ص 119.

[2]. المرجع نفسه: ص 193.

انتباها و دقة و ملاحظة عن الواصف لكي يستوعب أكثر معاني الموصوف ».[1]

يلاحظ في وصف ابن جبير التوسع و الإسهاب و إبراز الملامح الجمالية للمكان و المشاهد العمرانية، كما هو الحال في وصف البيت الحرام و المسجد النبوي، و أحيانا يميل إلى الاختصار و الإيجاز، مثل وصف " كسوة الأمير العراقي للكعبة " حيث يقول: « فلاح للناظرين منها أجمل منظر، كأنها عروس جليت في السندس الأخضر.»[2]

تتنوع أساليب تشكيل المكان في رحلة " ابن جبير" « بتنوع وظائف الوصف المختلفة، كالوظيفة الزخرفية، التفسيرية، الاستقصائية»[3]

ـ **الوظيفة الزخرفية:** يكون الوصف فيها عنصرا طارئا « خفيف الظل على السرد و لا أهمية له سوى ملئ الثغرات النصية و إراحة المتلقي من سيل الأحداث المتدفقة إذ لا يخلو الأمر من وظيفة تزينية يؤديها الوصف على مسار النص»[4] و من الأمثلة على ذلك قوله عن العمرة الرجبية « عندهم أخت الوقفة العرفية، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذي لم يسمع بمثله ويبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلاّ الله عزّوجل فمن

[1]ـ أبو هلال العسكري: ص 128.

[2]ـ ابن جبير: ص 158.

[3]ـ أحمد عبد الرزاق خليل: جمالية المكان في رحلة ابن جبير الأندلسي، كلية الأدب، الجامعة العراقية، ص 356.

[4]ـ المرجع نفسه: ص 356.

لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدي ذكره غرابة و عجبا شاهدنا من ذلك أمرا يعجز الوصف عنه.»[1]

ـ **الوصف الاستقصائي التفصيلي:** فإنه يقوم « بذكر معظم تفاصيل الشيء الموصوف و يخضعه لعملية استقصاء تام لجميع مكوناته و أجزائه و لذلك تطول مقاطع الوصف فيه و تتفرع.»[2]

يتبين ذلك في وصف " ابن جبير " الدقيق للمدينة المكرمة إذ قاس أطرافه بالخطوة و الشبر بحيث قال: « و للمدينة المكرمة أربعة أبواب، و هي تحت سورين، في كل سور باب يقابله أخر، الواحد منها كلّه حديد، و يعرف باسمه باب الحديد، و يليه باب الشريعة ثم باب القبلة و هو مغلق، ثم باب البقيع، ...»[3]

ـ **الوظيفة التفسيرية** : يقصد بها « زيادة توضيح و تفصيل جزئيات و ذلك لأن الوصف قد يحمل معاني و دلالات أبعد من مجرد تصوير المحسوسات و المرئيات لأنه عنصر أساسي في العرض و هو في الوقت نفسه يكون سببسا و نتيجة.»[4]

---

[1]. ابن جبير: ص 106.

[2]. أحمد عبد الرزاق خليل: ص 358

[3]. ابن جبير: ص 175.

[4]. أحمد عبد الرزاق خليل: ص 357.358.

من النماذج " ابن جبير" في وصفه لمدينة " صور" « وأما حصانتها و مناعتها فأعجب ما يحدث به، و ذلك أنها راجعة إلى بابين: أحدهما في البر، و الأخر في البحر، و هو يحيط بها إلاّ من جهة واحدة، فالذي في البرّ يفضّى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر مشيدة محيطة في الباب.»[1]

- ✓ الشعر: نجد كثيرا من الرحلات تصفح بالكثير من الأشعار المختلفة المضامين و المتفاوتة في القيمة الفنية و هذه « الأشعار إما من إبداع الرّحالة أو من إبداع غيره من الماضين أو المعاصرين الذي ينشدهم و يناشدونه، و الرّحالة و هو يحكي رحلته بالشعر إنما يفعل ذلك تحت تأثير المكانة العالمية التي يحتلها الشعر في الثقافة العربية »[2]

تناول " ابن جبير " الشعر في رحلته إلاّ أنه ليس بالكثير و إنما في بضع أسطر، و يظهر ذلك في قوله في " مجالس علم و وعظ " :

أين فؤادي أذابه الوجد، ♣ و أين قلبي فما صحا بعد

يا سعد زدني جوى بذكرهم، ♣ بالله قل لي فديت يا سعد[3]

نجد أيضا في " ذكر مدينة نصيبين، حرسها الله "حين قال:

---

[1]. ابن جبير: 277.

[2]. أبو هلال العسكري: ص 128.

[3]. ابن جبير: ص 199.

طابت نصيبين لي يوما فطبت لها، ♣ ياليت حظّي من الدنيا نصيبين.[1]

2. خصائص الكتابة الرحلية :

تتميز الكتابة الرّحلية بجملة من الخصائص تتميزها عن الأجناس النثرية الأخرى، و هذه الخصائص هي:

ـ هيمنة بنية السفر التي تؤطر الأحداث و تنظمها مما سبقت الإشارة إليه .

ـ الذاتية: تحضر ذات الرحالة في رحلته حضورا بارزا، و ليس هذا بمستغرب ما دامت الرحلة حكيا لسفر قامت من به هذه الذات، و هكذا تحتل الذات المركز، في الرحلة و الترحال، و تصطبغ الرحلة بألوانها الناصعة و الداكنة.

ـ الحكي بضمير المتكلم مفردا أو جمعا: و هذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابة.

ـ الواقعية: الرحالة الراوي رجل واقعي عاش في فترة زمنية معروفة، و الأشخاص الذي يتحدث عنهم، هم أيضا واقعيون عاشوا في زمن معروف و مكان معروف، فالأماكن التي يصفها حقيقة لها وجود فعلي على الأرض. و بهذه الخصيصة تتميز الرحلة عنّ الرواية و المقامة المبنيين على الخيال.

[1]. ابن جبير: ص 214.

ـ دورة الخطاب بالرجوع إلى نقطة الانطلاق: فالخطاب يبدأ مع انطلاق الرحالة من مواطنة ويسير معه إلى المكان المقصود، و يعود معه إلى نقطة الانطلاق، و هكذا بدور الخطاب مع السفر، و ينتهي من حيث بدأ.

ـ تعدد المضامين و تداخل الخطابات: يشتمل الخطاب الرحلي على معارف متنوعة: « دينية و تاريخية، و جغرافية وإنثوغرافية و أدبية و تتداخل فيه خطابات مختلفة: الشعر والرسالة و الحكاية و الوصف و السرد ... وهذا ما جعله محملة الأجناس.»[1]

ـ الخصائص الفنية للرحلة:

- ✓ بناء الرحلة : اعتمد ابن جبير على الاهتمام ببناء كتاب رحلته من خلال اهتمامه بتدبيج رحلته بغرض التعبير عمّا جاء فيها من أوصاف و معلومات حول البلدان التي مرّ بها، حيث افتتحها بالبسملة تبركا بالابتداء بيها و كما جعلها في سطر لوحدها و تبعها بالصلاة على الرّسول عليه الصلاة و السلام و كما جاء افتتاحية الرحلة: « بسم الله الرحمن الرّحيم، اللهمّ صلّ على سيدنا محمد و آله وصحبه و سلم ».[2]
- ✓ الألفاظ و الجمل و الأساليب: تعتبر اللغة أساس النص الأدبي الجيد « إنّ الأديب المتمكن هو الذي يملك هذه اللغة و يفكر في تراكيبه ثم ينشئ بها أدبه، فإذا كانت

[1] ـ جميلة روباش: أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، ص

[2] ـ ابن جبير: ص07.

لغته رديئة فإنّ تفكيره معانيه لم ينتفع به فقيل إراد النص الأدبي لا بدّ للأديب أن يتمكن من لغته.»[1]

و « للغة ألفاظ و معاني يجب أن تتلاءم و تتألف مع بعضها البعض بحيث تكون ألفاظ موافقة للمعاني»[2]، و كما عرفنّا أن اللفظة الواحدة لا تستطيع إيراد المعنى الصائب لوحدها، و إنما لا بدّ من أن تتألف مع غيرها من الألفاظ كي لا يأتي « الكلام قلقل و نافر عن مواضعه.»[3]

ألفاظ ابن جبير في رحلته دقيقة فصيحة و منسجمة مع بعضها من حيث التركيب كالعقد المنظوم و سمة الجزالة تمثل أكثر ما دونّ في رحلته و لا غرو فهو لغوي، كاتب و شاعر، إضافة إلى تأثره بالقرآن الكريم و يتضح ذلك في قدرته العجيبة في تركيب الألفاظ و نسقها على وزن واحد و كما يتضح أيضا ذلك من خلال وصفه لأهل مدينة دمشق و رتبهم في جنائزهم قائلا: «و نقباء جنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للغراء من محتشمي البلدة، و أعيانهم فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه...أو نجيبه.» [4]

[1]. علي مفتاح راشد الهندي : أدب الرحلات ، ابن جبير الرّحالة الأديب ، جامعة الزاوية ، ليبيا ، ص07.
[2]. أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، دار الفكر، بيروت،ط2، 1978، ص385.
[3]. ابن الأثير: المثل السائر، تح: كمال عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2، 1998، جزء 1. ص 147.
[4]. ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص267.268.

و كذلك في قوله في وصف مدينة نصيبين، حيث اختار في ذكرها العديد من الألفاظ الجميلة و قال: « الشهيرة العتاقة و القدم ظاهرها شباب و باطنها هرم، جميلة المنظر متوسطة بين الكبر و الصغر يمتد أمامها و خلفها بساط أخضر من البصر.»[1]و رتّب الرحالة كل تلك الألفاظ في جمل خبرية أحيانا قصيرة و أحيانا أخرى طويلة كقوله في وصف المدينة التي هي حضرة صقلية، « هي بهذه الجزائر أم الحضارة و الجامعة بين الحنين غضارة و نضارة، فما شئت بها من جمال مخبر و منظر، و مراد عيش يانع أخضر، عتيقة أنيقة ، مشرقة و مونقة.»[2]

الأسلوب هو المنوال الذي ينسج فيه تراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه و يمكن تعريفه بأنه: «المنهج الذي ينتهجه الأديب في التعبير عما يجول في خاطره من معني و عواطف و أفكار التي يستعملها بصورة صحيحة مؤثرة تنقل لنا مدى إحساسه و شعوره بفنه.»[3]

كما يتنوع الأسلوب في رحلة ابن جبير من السرد القصصي إلى الوصف و غيره، و لكن أبرز ما يميز الكتابة في كتابه هو أسلوب الكتابة القصصي الذي اعتمد فيه الكاتب عن السرد المشوق بما قدّمه من متعة ذهنية حيث عمد الرّحالة في أسلوبه إلى الاقتباس من القرآن الكريم و تأثر بآياته و الاستشهاد بالأشعار فيتضح ذلك في وصفه

[1]. ابن جبير: ص 214.

[2]. المصدر نفسه: ص305.

[3]. ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون ، دار مكتبة الهلال ، تح: حجر عاصي، بيروت، دط، 1988، ص570.

لمدينة عكة، «هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام و محط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، المشبّهة في عظمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن و الرفاق، و ملتقى التجار المسلمين و النصارى في جميع الأفاق .»[1]

كما جاء أيضا لوصفه لأهوال البحر عندما شارفت سفينتهم على الغرق و هو على مشارف مدينة مسينة قائلا: «فتمكن حينئذ اليأس من النفوس و في أثناء مكايدة هذه الأحوال أسفر الصبح فجاء نصر الله و الفتح، و حققنا النظر فإذا بمدينة مسينة أمامنا على أقل من نصف الميل، و قد حيل بيننا و بينهم، فعجبنا من قدرة الله عزّوجل في تصريف أقداره، و قلنا: رّب مجلوب إليه حتفه في عتبة داره.»[2]

أستخدم ابن جبير فنون البلاغة لدعم الأسلوب القصصي و استعمل فن السجع، الطباق، التشبيه و ذلك قصد إضفاء الحيوية و إبعاد الملل الذي قد يحيط بالقارئ فشاع السجع و الشعر المقفى في مواضيع مختلفة من الكتاب في وصفه لمدينة منبج، «بلدة فسيحة الأرجاء صحيحة الهواء يحق بها سور عتيق ممتد الغاية و الانتهاء، جّوها صقيل ، و مجتلاها جميل، و نسيمها أرج النثر عليل، نهارها يندى ضلّه... .»[3]

كما لعب أيضا التشبيه و الاستعارة في هذه الرحلة و صار في معظم أوصافه إستقطفت فيها في وصف مدينة رأس العين قائلا: « الله تعالى فجر أرضها عيونا

[1]. ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص 276.
[2]. المصدر نفسه: ص 294.
[3]. المصدر نفسه: ص 223.

و أجراها ماء معينا، فتقسمت مذانب و انسابت جداول تنبسط في مروج خضر، فكأنها سبائك اللّجين ممدودة في بساط الزبرجد.»[1]

- ✓ العاطفة: تعتبر العاطفة حسب عبد العزيز عتيق « تنظيم وجداني ثابت نسبيا و مركب من عدّة إستعدادة انفعالية تدور حول موضوع معين قد يكون شيئا أو شخصا أو جماعة أو فكرة.»[2]

تعتبر العاطفة من العناصر المهمة لنجاح العمل الأدبي كما عدّها العديد من النقاد و الأدباء من مقاييس الأثر الأدبي و وجودها ضروري، كما اتضح ذلك فبعاطفة ابن جبير و دورها اتجاه مشاهدته من عواطف دينية في وصف المدن فكان « يختم كل كلام بالدعاء إلى الله تعالى و التوكل عليه جلّ جلاله، و هذه العاطفة المتّقدة دفعته إلى إرسال الأدعية للمدن التي مرّ بها... وقد كان يفتنه كل ما يشاهده، فكل مشهد يقيد الأبصار و يستوقف المستوفز تعجبا.»[3]و نستدّل ببعض الأدعية الصادقة لبعض المدن و المشاهد و ذلك كقوله لمكة: « و قد كمل لنا بمكة شرّفها الله تعالى... فأوزعنا الله شكر هذه المنّة و عرفنا قدر ما خصنا به من نعمة، و ختم لنا بالقبول،

[1]. ابن جبير: ص117.

[2]. عبد العزيز عتيق: النقد الأدبي، دار النهضة العربية و النشر، بيروت،ط2، 1972، ص 147

[3]. ابن جبير: ص6.

و أجرانا على كريم عوائده من الصنع الجميل و لطيف التيسير و التسهيل بعزته و قدرته لا إله سواه.»[1]

لا يقصر ابن جبير في دعائه على المدن فقط و إنما كان يدعو حتى للأشخاص مثل المغربي الذي صاحبه من دمشق إلى عكة كان قد نبذ دين الإسلام وتنصر، فجاء ابن جبير بالدعاء التالي: « نسأل الله عزّوجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا و الآخرة و لا يعدل بنا عن الملّة الحنيفيّة أن يتوفانا مسلمين بفضله و رحمته.»[2]

كان الرّحالة ابن جبير كلما مرّ بمدينة أو مكان دعا لهما بشرفها الله تعالى أو حرسها الله تعالى أو حماها الله أو عمرها الله تعالى، وإذا كانت تلك المدينة التي مرّ بها كانت من المدن التي تحت سيطرة الفرنجة أو من المدن التي خرجت من يد المسلمين دعا عليها بمقولة:" فتحها الله " أو " أعادها الله تعالى " أو " دمرّها الله و أعادها " و هكذا كلّ تلك الأدعية كانت تنبعث من العاطفة الدينية القوية كانت تصدر من أديب أحس بإسلامه و عروبته اتجاه مدنه العربية الإسلامية.

3. جمالية الرحلة عند ابن جبير:

[1]. ابن جبير: ص59.

[2]. المصدر نفسه: ص 181.

✓ جمالية المكان في رحلة إبن جبير: يعتبر المكان أو الفضاء في نص ابن جبير العنصر المهيمن، فمنذ بداية الرحلة إلى نهايتها إلاّ و ذكر فيها العديد من الأماكن التي وقف فيها و هذا ما جعلها لا تقل عن دور الزمن أو الشخصيات في النص الرحلي، لكونه بمثابة الإناء أو الوعاء الذي يجمع عناصر البنية الرحلية .

لكن قبل أن تتطرق إلى مفهوم المكان " لغة " و " اصطلاحا "، يجب علينا أولا أن نذكر لهذا الأخير مصطلحين آخرين مرادفين، و معادلين لمصطلح المكان و هما الفضاء و الحيز .

ـ المكان : تطرق إليه كل من " هنري متران " و " جيرارد جينت " و غيرهم من النقاد " كحسن البحراوي "، و مرتاض " و.... .يرى " هنري متران "، « أنّ المكان هو الذي يؤسس الحكي لأنه يجعل القضية المتخيلية ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة.»[1]

يسير " جيرارد جينت " على منوال صديقه الناقد الأول " هنري متران " إلى « الانطباع الذي كونه " مارسيل بروست " عن الأدب الروائي ، إذ يتمكن القارئ دائما من ارتياد أماكن مجهولة متوهما بأنه قادر أن يسكنها أو يستقر فيها إذا شاء.»[2]

[1]ـ حميد لحميداني: بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر و التوزيع،ط2، 1991، ص 65.
[2]ـ المرجع نفسه: ص 65.

✓ لغة : جاء مفهوم المكان في لسان العرب على أنّ « المكان هو الموضع و الجمع أمكنة كقذال و أقذلة، و أماكن جمع الجمع.»[1]

أما في معجم الوسيط: « المكان: المنزلة، يقال، هو رفيع المكان، و الموضع ﴿ج﴾ أمكنة.

﴿ المكانة ﴾: المكان بمعنييه السابقين، و في التنزيل العزيز: { و لو نشاء لمسخناهم على مكانتهم }. أيّ موضعهم.»[2]

في معجم العين لأحمد الفراهدي: « المكان: اشتقاقه من كان يكون، فلمّا كثرت صارت الميم كأنها أصلية فجمع على أمكنه، و يقال أيضا: تمكن، كما يقال من المسكين: تمسكن، و فلان منى مكان هذا، وهو منّى موضع الهامة وغير هذا ثم، يخرجه العرب على المفعل، و لا يخرجونه على غير ذلك من المصادر.»[3]

✓ اصطلاحا : عرّف هذا المصطلح في المعجم الفلسفي بأنه: « وسط مثالي غير متداخل لأجزاء، حاو للأجسام المستقرة فيه محيط بكل امتداد متناه، و هو متجانس

[1]- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عامر أحمد بن حيدر، مجلّد 11، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2 ،2003 مـ ، ص 4250.

[2]- معجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات، و إحياء التراث، جمهورية مصر العربية، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، ص 806.

[3]- الخليل بن أحمد الفراهدي: كتاب العين، تح: د عبد الحميد هنداوي، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 59.

✓ الأقسام، متشابه الخواص في جميع الجهات، متصل و غير محدود.»[1]

أمّا " غاستون باشلار" قدما له مفهوها مغايرا تماما: « إنّ المكان الذي ينجذب نحو الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية و حسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل بكل ما في الخيال من تحيز.»[2]

يرى أحمد مرشد أنّ هو « أحد المكونات الحكائية التي تشكل بنية النص الروائي لكونه يمثل العنصر الأساسي، الذي يتطلبه الجدث الروائي، و الشخصية الروائية في الوقت نفسه، و لهذا يلعب دورا مركزيا داخل منظومة الحكي، لأن الحدث الروائي لا يمكن أن يتم في الفراغ بل لا بد من مكان يقع فيه.»[3]

ـ الفضاء :

✓ لغة: جاء في لسان العرب" لابن منظور" أنه « المكان الواسع من الأرض و الفعل فضا، يفضو، فضوا، فهو فاض، و الفضاء، الخالي الواسع من الأرض و الفضاء الساحة و ما اتسع من الأرض.»[4]

[1]. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب العالمي الدار الإفريقية العربية دار التوفيق، بيروت لبنان 1994. ص 412.

[2]. غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلستا المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، ط2 . 1984 ، ص 31.

[3]. أحمد مرشد: البنية و الدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، دار الفارس للنشر و التوزيع، عمان ط1، 2005، ص127.

[4]. ابن منظور: لسان العرب، ص 3430.3431.

✓ اصطلاحا: يرى" لطيف زيتوني" أنّ الأدب و الفضاء تربطهما علاقتين « الأولى تكوين النص الأدبي و الثانية مضمونة قائمة في موضوعة.»[1]

أما " جيرار جينت " فيراه بأنه: « ليس شيئا أخر سوى ما ندعوه عادة صور figure.»[2]

ـ الحيز: تعددت تعريفات هذا المصطلح كما تعددت تعريفات المكان و الفضاء و من أشهر التعاريف نقدم تعريف " عبد المالك مرتاض " و يقول عنه: « يكون الحيز الروائي ممثلا في قرية أو مدينة كما قد يتمثل في هضبة أو جبل، كما قد يكون شاطئ بحر أو ضفتي نهر، أو جهتي بحيرة، أو جانبي واد... و يتسم الحيز الروائي في معظم أطوار متولة، بالجمالية و الإيحاء، و يتفلوت الروائيون في البراعة لدى بنائهم الحيز و رسمه و تحديد معالمه و جعله كما يتعامل معه في " الرواية الجديدة " طرفا فاعلا في المشكلات السردية بحيث قد يستحيل إلى كائن يعي و يعقل و يضر و ينفع و يسمع و ينطق.»[3]

✓ الأماكن المغلقة في رحلة ابن جبير:

[1]. لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، ناشرون ش.م.ل، بيروت لبنان 2002.ص127.

[2]. حميد لحميداني: ص61.

[3]. عبد المالك مرتاض: نظرية الرواية، عالم المعرفة، 1998، ص130.

هي الأماكن التي تكتسي طابعا خاصا من خلال تفاعل الشخصية معه، و من خلال مقابلته لفضاء أكثر انفتاحا و اتساعا و يتمثل هذا النوع في الأماكن التالية:

ـ منزل: هو أول و أهم الأمكنة التي صنعها الإنسان، و لايزال يصنعه منذ فجر التاريخ حتى الآن، جمعه منازل، إنه المكان الذي يأوي إليه العامة من الناس، و المنزل قد يكون مخدوم من الإسمنت أو الحجر أو... المهم أنه يكون مكان مغلقا يتردد إليه الإنسان، حينما يريد الاسترخاء.

المنزل في رحلة ابن جبير هو مأوى اتجه إليه ابن جبير و أصحابه أثناء رحلتهم، و هي عبارة « عن أثر لبنيان قديم ذكر لنا أنه كان منزلا لليهود فيما سلف».[1]

ـ الفندق: الجمع: فنادق أو النزل، هو مسكن يسكن فيه الشخص لوقت قصير مقابل أجر، مؤثث مفروش و قد يكون مزودا بأجهزة منزلية و وسائل راحة و ترفيه: مع توفير خدمات الطعام و النظافة و الصيانة و غيرها، وهو يساعد في النشاط السياحي في كل دولة فوجود شبكة قوية من الفنادق ينشط السياحة بجانب المنتجعات و القرى السياحية و المطاعم و ذكر في رحلة ابن جبير فندق" الصفارة " في عبارة « و كان نزولنا بها بفندق الصفارة بمقربة من الصبانة.»[2]

[1]. ابن جبير: ص9.

[2]. ابن جبير: ص 12.

ـ مسجد الحرام: هو أعظم مسجد في الإسلام و يقع في قلب مدينة مكة غرب المملكة العربية السعودية، تتوسطه الكعبة المشرفة التي هي أول بيت وضع للنّاس على وجّه الأرض ليعبدوا الله فيه تبعا للعقيدة الإسلامية، و هذه هي أعظم و أقدس بقعة على وجه الأرض عند المسلمين، و المسجد الحرام هو قبلة المسلمين في صلاتهم، و إليه يحجون و كثيرا ما يتردّد إليه في رحلته عندما كان في طريقه إلى المسجد الحرام « و في أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذي الحجّة المؤرخ و صلينا في المسجد المبارك المذكور، و شاهدنا من شأن مبناه عجبا لا يستوفيه وصف واصف.»[1]

قد ذكر أيضا المسجد بحيث قال: « و من الغريب أيضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرّفهم بالنهار في جميع أحوالهم، و هو أكثر بلاد الله مساجد... فالمكثر ينتهي في تقديره إلى عشر ألف مسجد.»[2]

فقد قدّم لنا ابن جبير أهمية و قيمة المسجد الحرام و المكانة الرافيعة التي يحضاها وأنّ أقدس المساجد مسجد الحرام المبارك.

ـ المدارس: هي مكان للتعليم و التدريس، فالمدرسة مؤسسة أسسّها و أنشأها المجتمع بهدف تربية و تعليم من يشترك فيها، ففي بداية كلّ عام دراسيّ يدخل فوج جديد للتعليم و إكمال

[1]. المصدر نفسه: ص 15.

[2]. المصدر نفسه: ص17.

المسيرة التعليمية، فالمدرسة هي اللّبنة الأساسية في المجتمع لخلق أجيال تنهض بالأمّة و تواكب العلم و التطور و الحضارة .

فقد ذكرنا ابن جبير المدارس في رحلته عندما كان يصف لنّا مناقب الإسكندرية « و من مناقب هذا البلد و مفاخر العائذ في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس و المحارس، الموضوعة فيه لأهل الطبّ و التعبّد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه و مدرّسا يعلّمه الفنّ الذي يريد تعلّمه.»[1]

ـ الروضة: أو الروضة المباركة أو الروضة الشريفة، هي موضع في المسجد النبوي واقع بين المنبر وحجرة النّبي محمد عبد الله ومن فضلها عند المسلمين ما قاله النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم: " ما بين بيتي و منبري روضة من رياض الجنّة، و منبري على حوضي "

و الروضة يستخدمها الكثير من وصفهم مكان جميل و رائع مثل الجنة «... و علقت عليه قناديل فضّة و حفّ أعلاه كلهّ بأمثال التفافيح ذهبا في مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنا و جمالا، فيه أنواع الرّخام المجزّع الغريب الصنعة البديع ...

[1]. ابن جبير: ص 15.

المدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنق و الغرابة، حيطانه كلّها رخام على الصفة المذكورة، و عن يمين الروضة المذكورة و شمالها بيتان من كليهما المدخل إليها و هما أيضا على تلك الصفة بعينها.»[1]

ـ البيت: يعدّ البيت مملكة الإنسان بحيث يمارس فيه حياته اليومية، وحتى أنه يشعر بذاته فيه، فهو يعتبر مكان مغلقا و انغلاقه هذا يزيد أمن و طمأنينة و حرية في التصرف.

قد ذكر مصطلح البيت في رحلة ابن جبير عدّة مرات إذ هو بيت الرجل الحبوشاني « المذكور تبركا بدعائه لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس، فألقيناه في مسجده بالقاهرة، و في البيت الذي يسكنه داخل المسجد المذكور، وهو بيت ضيق الفناء.»[2]

فالبيت هنا عبارة عن مسكن للرجل الذي إلتقاه ابن جبير هو و أصحابه فيعتبر البيت في هذا المقطع شيئا لطمأنينة الإنسان بحيث يحس فيه بالأمان.

ـ القلعة: هو عبارة عن حصن منيع يشيد في موقع يصعب الوصول إليه و غالبا ما يكون على قمة جبل أو مشرفا على البحر، و قد وجد بعضها مشيدا على أرض منبسطة، وكانت هذه القلاع عند العرب و غيرهم من الأمم الأخرى تؤدي دور البيت و الحصن و السجن... فقد ذكر ابن جبير في رحلته هذه القلعة التي وجدّها بالقاهرة « و هو حصن يتصل بالقاهرة

[1]. ابن جبير: ص 19.

[2]. المصدر نفسه: ص23.

، حصين المنعة، يريد السلطان أنّ يتخذه موضع سكناه، و يمدّ سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر و القاهرة.»[1]

في رحلة ابن جبير أيضا تعتبر القلعة على أنه حصنّ المنسوبة ليوسف الصدّيق عليه السلام، « فهو الآن ينقص و ينقل أحجاره إلى القلعة المتبناة الآن على القاهرة، و هو حصن حصين المنعة.»[2]

ـ القصر: فهو غالبا ما يكون مقر إقامة كبيرة، و خاصة ما يتعلق بالمقرات الملكية و الرئاسية أو ذوي المستوى العالي.

تردده كلمة القصر في رحلة ابن جبير خاصة عندما كان في القاهرة إذ يقول فيها « هو قصر من القصور الرائقة حسنا و اتساعا أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا و احتسابا.» [3]

✓ الأماكن المفتوحة في رحلة ابن جبير.

يتميز المكان المفتوح بالاتساع و التحرّر، و لا يخلق للمرء مشاعر الضّيق و الخوف، لاسيما إذا كان المكان المفتوح كالقرية، الجبال، الوطن، و يرتبط المكان المفتوح بالمكان المغلق ارتباطا وثيقا، و لعلها حلقة الوصل بينهما هي الإنسان الذي ينطلق من المكان المغلق إلى المكان المفتوح.

---

[1]. ابن جبير: ص 25.

[2]. المصدر نفسه: ص 32.

[3]. المصدر نفسه: ص 26.

ـ الوطن: الوطن عبارة عن المكان الذي يرتبط به الشعب ارتباطا تاريخيا طويلا المنطقة التي تولدت فيها الهوية الوطنية للشعب.

لقد ارتبط الوطن بالشخصية ابن جبير في رحلته بحيث تعدّ المرجع الأول له و هدفه العودة والوصول إلى وطنه بخير و سلام « و هو سبحانه المسؤول بتتميم النعمة علينا ببلوغ الغرض من المقصود و تعجيل الإياب إلى الوطن على خير و عافية.»[1]

ـ القرية: هي مكان يجتمع فيه مجموعة من النّاس و يستقرون فيه، و قد يكونون فيه مجتمعا خاصا بهم، و عادة ما يكون عدد سكانه يتراوح ما بين المائة و العشرة ألاف، و قد يكونون من قبيلة أو عشيرة أو حتى قد يكونون من عائلة واحدة أو عدّة عائلات.

فالقرية هي فضاء مفتوح، ففي رحلة ابن جبير ذكر مصطلح القرية عدّة مرات بحيث تعتبر نقطة انتقال من منطقة إلى أخرى أو من قرية إلى قرية.

تعدّ القشمة هي أول قرية دخلها ابن هو و أصدقائها « ... ثم إلى سلبر ثم منه على حصن أركش ثم منه إلى قرية تعرّف بقرية القشمة من قرى مدينة ابن السّليم ثم منها إلى جزيرة طريف.»[2]

[1]. ابن جبير: ص 12.

[2]. ابن جبير: ص 8.

ذكرها أيضا في قوله: « و اتصل سيرنا إلى موضع يعرف ببرمة فكان مبيتنا بها، و هي قرية كبيرة فيها السوق و جميع الموافق.»[1]

هذا يعني أنّ ابن جبير و أصدقائه ينتقلون من قرية و يذكرها أيضا في النيل « و على شط نيلها مما يلي غربيها، و النيل معترض بينهما، قرية كبيرة حفيلة البنيان تعرف بالجيزة ».[2]

ـ البلاد: كمصطلح جغرافي و سياسي هو أرض جغرافية و يستعمل هذا المصطلح كمفهوم يدل على الوطن و الدولة.

«و من مناقب هذا البلد و مفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس و المحارس.»[3]

فهنا ابن جبير استخدم مصطلح البلد و يقصد القاهرة بوصفه أفخم ما تملكه من مناقب،

كما وصف لنا بدمهور في قوله: « و هو بلد مسوّر في بسيط من الأرض أفيح.»[4]

فالبلد في رحلة ابن جبير يذكر في معنيين، فقد يكون مقصده للمبيت و الاستراحة فيه، و قد يكون طريق مرّ منه وهو في سعيه نحو هدفه.

---

[1]. المصدر نفسه: ص18.

[2]. المصدر نفسه: ص 29.

[3]. المصدر نفسه: ص 15.

[4]. ابن جبير: ص 18.

ـ الجبال: يعدّ الجبل أحد الأمكنة المفتوحة فهو تضاريس يرتفع عما حوله من الأرض في منطقة محدّدة و تتميز بقمم صخرية حادة و الجبل بصورة عامة فهو أكثر ارتفاعا وجدّه من الهضبة.

ذكر مصطلح الجبال بشيء ضئيل فهي كنقطة الاقتراب من المنطقة المقصودة بحيث قال، و « وظهر لنا إذ ذاك الجبل الذي كان فيه البركان، و هو جبل عظيم مصعد في جو السماء قد كساه الثلج.»[1]

ـ السوق: هو التقاء وجهات النظريين البائع و المشتري و قد ارتبط السوق بالقرية بحيث أنّ لكل قرية به مجموعة من الناس أو بلد سوق يلتقي به مجموعة من النّاس لتبادل أرائهم، « و النيل معترض بينهما، قرية كبيرة، حفيلة البنيان، تعرف بالجيزة، لها كلّ يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع إليها.»[2]

✓ تحليل الرحلة الأولى لابن جبير:

[1]. المصدر نفسه: ص 11.

[2]. المصدر نفسه: ص 29.

أ. وصف المدن: غادر ابن جبير و صاحبه أحمد بن حسان غرناطة يوم الخميس 8 شوال سنة 578هـ، قاصدا مكة حاجا، مرورا بمدينة لأندلس تسمى " جيان "[1] وكان الخروج منّها يوم الإثنين 19 من شوال و كانت مرحلتهم الأولى إلى حصن " القبذاف "[2] ثم إلى حصن قبرة و هكذا من مدينة إلى أخرى حتى وصولهم إلى جزيرة " طريف " وذلك في 26 من شوال، وكما واصلوا عبورهم في البحر إلى قصر مصمودة و كان تيسرا محمودا، و في يوم الأربعاء 28 كانوا في سبته متوجهين إلى الإسكندرية فكان الله مسهل في رحلتهم هذه.

في 29 أقلعوا إلى البّر الأندلس و من جزيرة إلى أخرى إلى حدّ عبورهم هذه الجزيرتين التي من " سبتة " يبلغ حوالي ثمانية مجاري و في مسيرتهم هذه في البحر واجهوا الكثير من الصعوبات من أهوال في البحر و أمواج تقذف السفينة و هم في وسط البحر، و رحلتهم هذه استغرقت 30 يوما، و كما التقوا مركبا للروم قصدوه حتى حاذاهم، إنه يريد طريق جزيرة صقلية و اتبعوا مساره حتى واصلو إلى برّ يدعى " بقوسمركة " و هو مرسى معروف، وبهذا الموضع في أثر لبنيان قديم و هو منزلا لي ليهود قديما، و من خلال بقائهم في المرسى استغربوا بما شهدوه في إحدى الأسواق و كان أول مشهد رأوه أنه مجموعة من نساء و رجال يباعون في إحدى الأسواق من المرسى الذي وقفوا فيه، وكان سببه العدّو، فأحسّ بألم، وأدرك ما أصاب هؤلاء البؤساء، و إنّ نتيجة ذلك هو تفكك العالم الإسلامي،

[1]. جيان: مدينة بالأندلس.

[2]. القبذاف: مدينة من نواحي قرطبة بالأندلس.

لذلك اتجه إلى تسجيل كل مشاهداته، ليقف عليها المسلمون و لكي يعلموا إلى أي مدى يجب أن تتّحد كلمتهم و أن يصلحوا أحوالهم حتى يستطيعون مواجهة الأخطار التي تواجههم، ثم بعد مرور أيام غادروا برّ سردانية مواصلين مسيرتهم إلى الإسكندرية جدين إنتباههم منارة الإسكندرية الشاهقة و ما لبث أن تحدث عن أخبارها وقف عند بعض أثارها يصفها قائلا: « ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي وضعه الله على يدي من سخر لذلك أية للمتوسمين و هداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى برّ الإسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا، و مبناه في غاية العتاقة و الوثاقة طولا و عرضا يزاحم الجوّ سمرا و ارتفاعا يقصر عنه الوصف و ينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق و المشاهدة له تتسع.»[1]

كما لفت انتباه ابن جبير و صاحبه عملية التفتيش في الميناء حيث قال: « فمن أول ما شهدناه فيما يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا، و سئل كل واحد عمّا لديه من سلع ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول.»[2]

كما وصف مكة المكرمة و شبهها بالعروس ليلة زفاهها و تحدث عن جمالها الباهر، بأسلوب أدبي فقال: « و دخلنا مكة...و كان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة و البدر قد ألقى

[1]. ابن جبير: ص 7.13.

[2]. المصدر نفسه: ص 13

على البسيطة شعاعه، و اللّيل قد كشف عنا قناعه... فهي عروس ليالي العمر و بكر بنيات الدّهر إلى، ألي أن وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور، حرّم الله العظيم و مبؤ الخليل إبراهيم فألقينا الكعبة الحرام عروسنا، مجلوة مزفوفة إلى الجنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمان.»[1]

بعد ثمانية أيام غادر الإسكندرية إلى القاهرة التي وقف فيها على مستشفى المجانين واصفا إياه قائلا: « و ممّا شاهدته أيضا من مفاخرة هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهر و هو قصر من قصور الرائقة حسنا و اتساعا، أبرزه لهذه الفضيلة تاجرا و احتسابا أي طلبا للأجر و الثواب و عيّن قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير و مكّنه من استعمال الأشربة و إقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى بكرة و عشية فيقابلون من الأغذية و الأشربة مما يليق وصلت سفرته صعيد مصر و تحديدا بلدة قوص التي مرّ فيها بالصحراء الشرقية إلى البحر الأحمر ليصل إلى جدّة، و من هناك أخذ قافلة متجها إلى مكة، حيث أقام هناك حوالي نصف سنة ثم زار المدينة و بإزاء هذا الموضع موضع مقتطف للنساء المرض و لهنّ أيضا من يكلفهن و يتصل بالموضعين المذكور بين، موضع أخر له فناء واسع فيه مقاصير عليها شبابيك

[1]- ابن جبير: ص 58

الحديد، اتخذت مجالس للمجانين لهم أيضا من يفتقد في كل يوم أحوالهم و يقابلها لما يصلح لها.»[1]

ثم توجه ابن جبير بعد ذلك إلى الكوفة، و توقف في بغداد و سامراء ثم واصل اتجاههم إلى دمشق التي قام فيها بضعة أشهر قبل أن يغادر الأرضي الإسلامية بسبب سواحل الشام كانت في ذلك الوقت في أيدي الصلبين .

تعرف ابن جبير على المشرق في عهد ازدهارها أيام صلاح الدين، فدوّن مشاهداته بأسلوب بارع، فمن ميناء عكا ركب ابن جبير سفينته إلى صقليّة، و بعد رحلة شاقة استطاع أن يتعرف على الجزيرة، فصوّر الحضارة الزاهرة بما في عهد غليوم الصالح النور ماندي مؤكدا أنها لا تزال إسلامية في المحلّ الأول.

تحدث ابن جبير عن صقلية قائلا: « و طول هذه الجزيرة...سبعة أيام، و عرضها مسيرة خمسة أيام، و بها جبل البركان المذكور، و هو يتأثر بالسحب لإفراط سموّه، و يعمّ بالثلج شتاء وصيفا دائما، و خصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف و كفى بأنها ابنه الأندلس في سيعة العمارة، و كثرة الخصب و الرفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها، مملؤة بأنواع الفواكه و أصنافها.»[2]

[1]. ابن جبير: ص 26.30.

[2]. المصدر نفسه:ص ص 296.297.

ب: وصف المساجد و المرافق: في رحلته الأولى لابن جبير وصف العديد من المساجد و البقاع الدينية، و المرافق العامة، من أهمها وصف المسجد الحرام، و مسجد الرسول صلى الله عليه و سلم، و في المسجد الحرام ذكر عدد أبوابه و أركانه، و ارتفاعه، بقوله: « البيت المكرم له أربعة أركان، و هو قريب التربيع، و أخبرني...إسماعيل بن عبد الرحمان أن ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا و هو من الحجر الأسود، إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذرعا، و سائر الجوانب ثمان وعشرون، بسبب انصباب السطح إلى الميزاب.»[1]

أيضا من خلال رحلته زار ابن جبير مسجد مولد النبي صلى الله عليه و السلام، ثم وصف ذلك المكان الظاهر الذي شهد مولد سيد الكائنات قائلا: « و في يوم الاثنين الثالث عشر منه دخلنا مولد النبي صلى الله عليه وسلّم، و هو مسجد حفيل البنيان، و كان دار العبد الله بن عبد المطلب...صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار و في وسطه رخامته خضراء سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة.»[2]

كما وصف أيضا مسجد رسول الله عليه و سلّم ووصف روضته المقدسة فقال: « المسجد المبارك مستطيل و تحفة من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به، و وسطه كله صحن مفروش بالرمل و الحصى فالجهة القبلية منها لها خمسة بلاطات مستطيلة من غرب إلى

[1]. ابن جبير :ص59.

[2]. المصدر نفسه : ص 141.

الشرق، و الجهة الشرقية لها ثلاث بلاطات، أما الغربة لها أربعة بلاطات... و الروضة المقدسة مع أخر الجهة القبلية مما يلي الشرق، وانتظمت من بلاطاته مما يلي الصحن في السعة اثنين و نتفت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار، و لها خمسة أركان بخمس صفحات، و شكلها شكل عجيب.»[1]

أمّا بالنسبة لوصفه للمرافق، فقد وثق الرحالة مشاهداته للحصون و الأبواب، و المنازل و الشوارع التي مرّ بها أثناء رحلته، فمن ضمن وصفه للحصون ما ذكره عن حصن الكرك باعتباره الحصن الذي شهد الحرب بين المسلمين بقيادة البطل صلاح الدين الأيوبي، و النصارى قائلا: « حصن الكرك و هو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز و المانع لسبيل المسلمين على البرّ بينه و بين القدس مسيرة يوم أو أوشق ، و هو سرارة أرض فلسطين ، و له نظر عظيم الاتساع متصل العمارة.»[2]

من بين ما وصفه أيضا للمرافق ما أثبته من معلومات حول أبواب بغداد الشرقية، عندما قال: « و الشرقية أربعة أبواب: فأولّها وهو في أعلى الشط، باب السلطان، ثم باب الطفرية، ثم يليه باب الحلبة ثم باب البصلية هذه الأبواب التي هي في السور المحيط بها أعلى الشط

[1]. ابن جبير: ص 168.

[2]. المصدر نفسه: ص 260.

إلى أسفله، و هو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيل و داخلها في الأسواق أبواب كثيرة و غيرها من المرافق الأخرى الموجودة في الرحلة.»[1]

ج - وصف الخيرات و مختلف الأطعمة: ابن جبير كان مدّققا في كل شيء شاهده أثناء قيامه بالرحلة، فلم يترك شيئا إلاّ و أثبته، و وصفه بأسلوبه المميز، و كان في هذه المرّة خاص بالأطعمة و الفواكه، و خاصة التي خصّ الله بها مكة المكرمة فهي ملتقى الصادر الوارد كما ذكر و الثمرات و الخيرات تجي إليها من كل مكان، وكان يتوقع ابن جبير أن بلاده الأندلس هي التي بها من الخيرات مالا يوجد في غيرها من كل بلاد العالم، و قد تحدث عن خيرات مكة واصفا إياها قائلا: « و ما الأرزاق و الفواكه و سائر الطيبات فكنا نظن أن الأندلس اختص من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حلّلنا بهذه البلاد المباركة فألفناها تعصب بالنعّم و الفواكه: كالتين و العنب و الرمان و السفرجل و الخوخ.»[2]

كما وصف أيضا الألبان و قصب السكر، و الحلوى و اللحوم، ثم ختم كلامه عن ذلك المبارك ماء زمزم، فقال: « و أنواع اللبن بها في نهاية من الطيب، و كل ما يصنع منها من السمن، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيبا و لذاذة ... و بها قصب السكر أيضا كثيرا... و أما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل و السكر المعقودة على صفات الشيء...

[1]. ابن جبير: ص 205.

[2]. المصدر نفسه: ص 97.

أما لحوم ضأنها فهناك من العجب العجيب قد وقع القطع من كل تطوف على الأفاق و ضرب نواحي الأقطار أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا.»[1]

كما تحدث أيضا عن بعض الأرزاق و الفواكه الموجودة في مدينة مينة من جزيرة صقلية، فوصف خيراتها قائلا فيها: « و خصب هذه الجزيرة أكثر من أنّ يوصف و كفى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة و كثرة الخصب و الرفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها مملؤة بأنواع الفواكه و أصنافها و جبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح و الشاه بلوط و البندق... وغيرها من الفواكه.» [2]

✓ تحليل الرحلة الثانية لابن جبير:

عندما زار ابن جبير " الكوفة " وجدها « كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها من العامر. ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة »[3] ليسبب تقادم الزمن و الهجومات المستمرة التي تعرضت إليها، ثم اتجه إلى الحلة و وصفها بأنها قوية البناء كثيرة الخلق متصلة بحدائق النخيل داخلا و خارجا.

عندما وصل إلى بغداد وجدها قد ذهب أكثر رسمها و لم يبقى إلاّ شهيرا اسمها، و اتهم أهلها بالكبرياء و الرياء و ازدراء الغرباء، غير أنه غبط بعض فقهاء و محدثي بغداد و على

[1]. ابن جبير: ص 98.101.
[2]. المصدر نفسه : ص ص296.297.
[3]. المصدر نفسه : ص 187

ما أوتي من حظ في العلم الكبير اكتملت رحلة ابن جبير بمرور قافلة مدينة " نصيبين و دنصير حرسها الله " الشاهرة العتيقة، ظاهرها شباب و باطنها هرم، متوسطة بين الكبار و الصغار و" رأس العين " بصفاء مائها و لذّة أسماكها حيث قال فيها:

« طابت نصيبين لي يوما فطبت لها ♣ يا ليت حظي من الدنيا نصيبين.»[1]

فيقول: « فخارجها رياضي الشمائل الأندلسي الحمائل، يرفّ غضارة و نضارة و يتألق عليه رونق الحضارة و داخلها شعث البادية باد عليه.»[2]

هذا النهر ينسرب إليها من عين معينة منبعها بجبل قريب منها، فيها « مدرستان و مارستان واحد، و صاحبها معين الدين أخو عزا لدين صاحب الموصل، ابنا أتابك، و لمعين الدين أيضا مدينة سنجار، و هي عن يمين الطريق من الموصل.» [3]

و عند نزولهم فيها بات فيها ليلة الأربعاء الثاني من ربيع الأول، و رحلوا صبيحته في قافلة كبيرة من البغال و الحمير.

ثم ذكر مدينة " حيران كلأها الله "و" منبج ": « التي تعتبر فسيحة الأرجاء، بلد لا حسن لديه فلا يؤلف البرد مائه، و لا تزال تتقد بالفح الهجير ساحته و أرجائه.»[4]

---

[1]. ابن جبير: ص 214.

[2]. المصدر نفسه: ص 214.

[3]. المصدر نفسه: ص 215.

[4]. المصدر نفسه: ص219.

و منبج « صحيحة الهواء يحف بها صور عتيق ممتد الغاية و الإنتهاء جوّها صقيل و مجتلّاها جميل.»[1]

في مدينة "حيران" « يلتقي بأحد الزهاد الذي يسمى المكشوف لأنه لا يخطي رأسه تواضعا لله تعالى، كما قارن أهلها بمحبة الغرباء، و أسرة الفقراء و لا تتنفس منها إلاّ نفسا ثقيلا و هذه البلدة منسوبة لأبينا إبراهيم صلى الله عليه و سلم و له بقبيلها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك فيه عين جارية كان مأوى له و لسارة، صلوات الله عليهما، و متعبدا لهما ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقرا للصالحين المتزهدين.»[2]

ثم نزل بـ " حلب " التي سرد رواية تقول: « إنّ قلعة المدينة كانت ربوة يأوي إليها إبراهيم الخليل بغنيمات فيحلبها و يتصرف بلبنها فلذلك سميت بـ حلب.»[3]

وذكر بلدة " بزاعة كلاها الله عزّوجل " « إنها بقعة طيبة الثرى واسعة الذرى تصغر من المدن و تكبر عن القرى و شعراء حلب منقيون جميعا وملوكها كانوا في خبر كان ووصف بلدة قسرين هذه بلدة شهيرة في الزمان لكنها خربت وعادت كأنها لم تكن بالأمس.»

4

[1]. ابن جبير: ص 223.

[2]. المصدر نفسه: ص 220.

[3]. المصدر نفسه: ص 225.

[4]. المصدر نفسه: ص ص 224.225.

كما ذكر ابن جبير أيضا في رحلته " جبل لبنان " المذكور « هو حدّ بين بلاد المسلمين و الإفرنج التي أعدّها الله للمسلمين مرورا بمدينة " حماة " المدينة الشهيرة الغير الفسيحة الفناء و لا رائقة البناء، ديارها مركومة و في هذه المدينة أيضا نهر يسمى" النهر العاصي " الذي رحلو منها و أسرو الليل كله إلى جسر معقود.» [1]

ثم انتقل إلى مدينة " حمص " التي « هي نزهة لعين مبصرها من النظافة و الملاحة و التي يجلب الماء إليها من نهر العاصي و أهلها موصوفون بالنجدة و التمرس بالعدو بمجاورتهم إياه.»[2]

في دمشق التي اعتبرها ابن جبير " جنة المشرق و مطلع حسنة المؤنق " و ذكر أن « بها عشرين مدرسة و صف بإسهاب جميعها شهير أبوابه و محاربه و صحنه و بلاطته و مقصورته الثلاثة و صوامعه، و كما أن هذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد.»[3]

[1]. ابن جبير: ص 230.

[2]. المصدر نفسه: ص ص232.231.

[3]. المصدر نفسه: 234.

من أهم الأشياء التي أشار إليها ابن جبير حين قال: « و من أعظم ما شاهدناه، لهم موضع يعرف بالقصر، و هو صرح عظيم مستقيم في الهواء و في أعلاه مساكن لم يرى أجمل إشراقا منها.»[1]

كما أنّ في هذا البلد رجلا صالحا كان من ملوك الزهاد و مناقبه كبيرة و وصف ابن جبير المسجد الكبير و الطاحونات التي فيها و البساتين هذه البلدة التي فيها الرجل الصالح الذي هو نورالدين رحمه الله تعالى « و كما أخبره أحد المغاربة أبو الحسن علي بن سردال الجياني المعروف بالأسود أن هذا الموقف المغربي يغل إذا كان النظر فيه جيدا.»[2]

هناك أيضا جبل " قاسيون " لجهة الغرب « فيها مغارة تعرف بمغارة الدم لأن فوقها دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابن أدم صلى الله عليه و سلّم.»[3]

و في هذه المنطقة في الجبل فيها حوالي سبعين نبيا ماتوا فيها جوعا. و نلاحظ أن ابن جبير في رحلته هذه العديد من المشاهد و اللقطات التي استوقفته و من بينها مشاهدته في « الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف

[1]. ابن جبير: ص 257.
[2]. المصدر نفسه : ص 257.
[3]. المصدر نفسه: ص247.248.

عثمان رضي الله عنه، وهو المصحف الذي وجّه به إلى الشام، و تفتح الخزانة كلّ يوم إثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه و تقبيله و يكثر الازدحام.»[1]

كما يصف أيضا ساعة المسجد العجيبة التي تعمل ليلا و نهارا.

ثم استهل شهر جمادى الآخرة عرفنا الله بركته « في ليلة الأحد من التاسع من شهر شتنبر و هما في دمشق حرسها الله على قدم الرحلة إلى عكة فتحها الله مع تجار النصارى مارين إلى بانياس التي استرجعها المسلمون من الصلبين ثم إلى عكة التي مازالت بأيديهم.»[2]

و في مدينة " صور" شاهد حفل زفاف إفرنجي و وصفه ثم أعرب عن مأساة عندما رأى أسرة مسلمين من رجال و نساء بيدي الصلبين و هم يرسفون بالقيود و يسرفون في الخدمة تصريف العبيد و يكبر في السلطان نورالدين و أهل تقوى في بلاد الشام، روح الحماية إذ يخصصون الأموال لإقتداء الأساري و يقدمون للمغاربة على غيرهم لأنهم لا أهل له.

كما يوجد أيضا في مدينة " صور" التي وضعها الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم وهي بمثابة أمانهم و هي أنظف من عكة من سكك و شوارع، و هذه أحد المشاهد التي التفتت انتباهه و كما وصف أيضا عند مصادفتهم لعرس إفرنجي و قد احتفل لذلك جميع النصارى منهم رجالا و نساءا و بعد ذلك عادوا إلى ذلك إلى عكة في البحر. و في يوم الإثنين الثالث و العشرين من جمادى المذكور أول شهر أكتوبر أقلعوا بمركبهم إلى " مسينة " من بلاد

[1]. ابن جبير: ص 242.

[2]. المصدر نفسه: ص 271.

جزيرة صقلية و لاحظ أن من الفجائع التي يعاتبها أسرى المسلمين أنه يرسفون في القيود و الخدمة الشاقة من رجال و نساء و لسوء حظهم أنهم اصطحبوا في طريقهم إلى عكة من دمشق رجلا مغربي و كان قد صاحب النصارى و تخلق بمثل أخلاقهم لأن الشيطان يستهويه و لكن بقول ابن جبير في كلامه: « نسأل الله عزّوجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا و الآخرة.»[1]

في قرب من مدينة " مسينة " كادوا أن يغرقوا لو لا إغاثة الملك صقلية غليام لهم إذ شرف بنفسه على عمليات الإنقاذ، يدفع أجرة نقل فقراء المسلمين من المركب إلى البرّ و في" بلارمة "حاضر صقلية يصادف عيد ميلاد و يحتفل به الناس رجالا و نساءا و يلاحظ ابن جبير أن زيّ النصرانيات مثل زيّ نساء المسلمين « فصيحات الألسن ملتحفات، متنقبات خرجنّا في هذا العيد و قد لبسنّا ثياب الحرير المذهب و أللحف الرائعة و إنتقبنا بالنقب الملونة و انتحلنا الأحفاف المذهبة.»[2]

كما لاحظ ابن جبير أن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج و سببهم يدخل إلى بلاد المسلمين و شاهدو ذلك عند خروجهم أن صلاح الدين الأيوبي عند منازلته حصن الكرك، قصد إليه الإفرنج و قد تألبوا من كل أوب أن يسبقوه إلى موضع الماء و يقطع عنه المسيرة من بلاد المسلمين لكن صمد لهم و أسبقهم إلى ذلك

[1]. ابن جبير: ص 278.

[2]. المصدر نفسه : ص 296.

، ذهب ابن جبير في العودة إلى الديار " عكة " ليستقل سفينة مبحرة إلى صقلية و كان معه عدد من المسلمين و مجموعة من الإفرنج و النصارى المعروفين بالبلغاريين من حجاج بيت المقدس و إن حاز المسلمون مواضعهم بإنفراد عن الإفرنج و صادفوا و هم في السفينة حلول أحد أعياد المسيحيين، و باتوا تلك الليلة حتى صباح الثلاثاء العاشر من شهر المذكور شتنبر في مدينة عكة لنزول قافلتهم و كما لاحظوا أمام بابه مصالب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلي و كما لاحظ أيضا ابن جبير أنهم يتكلمون اللغة العربية و يكتبونه، و كما أن المسجد بقي على أيدي المسلمين، و كما يجتمع الغرباء فيها لإقامة الصلاة و وصف أيضا في ذكره لمدينة " بانياس " وهي « مدينة المسلمين و هي صغيرة التي كانت بيد الإفرنج فاسترجعها نورالدين و سبب استرجاعها هو أن طائفة من أمجادهم غزت نورالدين رحمه الله و كان أكثر المعترضين في المكس هم مغاربة لذلك استرجعها و اشتهر فيها.»[1]

نلاحظ أنّ الرحالات كلّها ركزت على العلاقة المتبادلة بين الإنسان و المكان والتي أشار إليها الرحالة ابن جبير في رحالاته التي صورها في صور الحياة الدينية و الإجتماعية، و كان الدين هو الشيء المميز و الأساسي الذي يشترك بين كلّ رحلاته المتنوعة و التي عاشها من فقر و عبودية وغنى في حياة الأندلسيين، و كما أسهم الجانب الديني في الكشف عن كثير من المناطق الدينية لكافة الشعوب، كما يعتبر ابن جبير في رحالاته التي قام بها

[1]. ابن جبير: ص 274.

شرقا و غربا يظهر فيها خاصة في الجانب الديني عند مختلف الشعوب التي التقى بها لهذا ظهرت فيه حب انتماء و حب الوطن و هذا شكله عن طريقة التعامل التي أثرة فيه بين المسلمين و أن لا يوجد إسلاما إلاّ في المغرب حيث يقول: « و ليحقق المتحقق و يعتقد الصحيح الإعتقاد أنه لا إسلام إلاّ ببلاد المغرب.»[1]

من بين الأمثلة التي تشير إلى ما ذهب إليه ابن جبير في أحكامه الحديثة عن أهل عيذاب حين قال: « و لأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت، و ذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض و تعود بهم كأنهم أقفاص الدجاج المملوءة.»[2]

كما لفت انتباه ابن جبير من حيث الجانب الديني و كيفية التعامل فيما بينهم و بين مختلف الأجناس حيث قال فيهم: « و هذه الفرقة من السودان المذكور بين فرقة أصل من الأنعام سبيلا و أصل عقولا لا دين لهم سوى كله التوحيد التي ينطقونها بعد إظهار الإسلام.»[3] و هذا عن مختلف الأشخاص الذين تلاقى فيهم مختلف معاملة بتصرفاتهم.

نجد مكة من أكبر المشاهد التي أطال فيها المشهد الديني فيها و كما أقاموا فيها الشعائر الدينية و الاعتناء بالمظاهر الدينية و بعض العادات المعتقدات المرتبطة بالدين غسل البيت بماء زمزم، إذ يقول: « فيتحرى غسلهم تكريما و تنزيلا و إزالة لما يحيك في النفوس من هو

[1]. ابن جبير: ص 64.
[2]. المصدر نفسه: ص 58.
[3]. المصدر نفسه: ص 59.

أجس الضنون.» [1] و أشار أيضا ابن جبير في مشاهدته لأهل مكة في رحلته التي أظهر أن الأخلاق الحميدة و الفضيلة و قيامهم بخدمة البيت الكريم هم صفات أهل مكة و دليل على ذلك لهم أفعال يقومون بها في شهر رمضان ما يدل على تمسكهم و انتمائهم للجانب الديني و المصافحة التي تجرى بينه في شهر العيد و يتسامح بعضهم البعض و تصفى قلوبهم في تلك المصافحة، حيث قال: « و أقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة و التسليم و التغافر و الدعاء مسرورينا جذيلينا فريحين.»[2]

نجد أيضا الواقع الذي عاشه المسلمون تحت حكم النصرانيين من خلال قول ابن جبير: « و ليس بمسينة هذه من المسلمين إلاّ نفر يسير من ذوي المهن و لذلك يستوحش بها المسلم الغريب و لهم فيها المساجد و الأسواق المختصة بهم في الأرياص.»[3]

هذه المساجد و الأسواق يقيمون فيها بعض المسلمين فيها. و نجد في الرحلة طرفا أخر رائد فيها و هم النصارى، وهم النص الديني الذي يحمل في سياقه كثيرا من التوجيهات و بعض أراء أصحابه من خلال طبيعة حياتهم و المواضع التي حلّ فيها الرحالة.

وصف كذلك ابن جبير الأماكن الدينية منها الكنائس و المصانع في مدينة أخميم و الهيكل

[1]. ابن جبير: ص 111.
[2]. المصدر نفسه: ص 125.
[3]. المصدر نفسه: ص 251.

الواقع في شرق المدينة و هو « من أعظم الهياكل المتحدث بغربائها في الدنيا و داخل هذا الهيكل من المجالس و الزوايا و المداخل و المخارج و المصاعد و المعارج.»[1]

نجد مدينة " عكة " و " صور " تعدان مواطن النصارى في المشرق و قاعدة من الإفرنج بالشام و مركز الطغيان لذلك كلما ذكرها الرحالة ابن جبير استعمل كلمة دمّرها الله و هذا ناتج من استعمال عواطفه التي يحملها بين الماضي و ذكرياته و علاقاته بين المسلمين و النصارى التي يميزها بالعصبية الدينية.

لفت انتباه ابن جبير طريقة تعايش التي لاحظها بين مسلمين و النصارى في مدينة بانياس، حيث يقول: « و لها محرث واسع في بطحاء متصلة و عمالة تلك البطحاء بين الإفرنج و المسلمين لهم في ذلك حدّ يعرف بحدّ المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء مواشيهم المختلطة.»[2]

نلاحظ أن الشريعة الإسلامية نسقت طرائق العلاقة و التعامل بين أصحاب الديانات المختلفة و التوحيد بينهم، فورد ذلك في القرآن الكريم، قال الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا و الذي أوحينا إليك و ما وصينا إبراهيم و موسى و عيسى أن أقيموا الذين و لا تتفرقوا فيه.}[3]

[1]. ابن جبير: ص 50.51.

[2]. المصدر نفسه : ص 233.

[3]. القرآن الكريم : سور الشورى ، الآية 13.

كما نرى أن مختلف الرّحالة العرب تنبأ رحلاتهم في مجال الاكتشاف و التعرف إلى مواقع من العالم و التي تعد بؤرة مركزية في بنية الثقافة العربية، و التي يصيفونها بالصور و المشاهد التي زاروها في مختلف الشعوب من أوروبا و شرق أسيا و في إفريقيا، التي تختلف نظرة الثقافة من شخص إلى أخر و من منطقة إلى أخرى الذي يحيطه موقع جغرافي معين و مواضيع الحياة التي يتبادلونها من ناحية العلوم و الآداب و الذي يلجأ كل واحد إلى تمسك بالإرث الثقافي الخاص ببلاده.

على الرغم من هذا التصور الثقافي الذي ينتمون إليه، لكن لم يوجد له اعتبار كبير للرحالة عكس الذي كان عليه الحال في المشاهد الدينية و الإجتماعية التي فيها تفاصيل و عبر كثيرة .

4 . دلالات وصف أماكن في رحلة ابن جبير :

✓ الأماكن المقدسة و المساجد :

تفنن ابن جبير في وصف للأماكن المقدسة و المساجد ضنّا منه عدم إعطاء كل موصوف حقه، وذلك للدلالة و القيمة التي تملكها تلك الأماكن العظيمة، فاستخدم أجمل و أروع مفردات اللغة محاولا التقريب إلى ماهو واقعي. فمن الأماكن المقدسة التي قام بوصفه هي كالتالي:

. القبور: ذكرّ ابن جبير " قبور" أل البيت و الصحافة و التابعين، مظهرا مواطن الزينة و الجمال حولها، مبينا أثرها النفسي و الديني في النفوس، و من بين القبور التي ذكرها: قبر الحسين بن علي رضي الله عنه عندما كان في القاهرة فقال واصفا « هو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض، قد بني عليه بنيان حفيل، يقصر عنه، فيه أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة، البديع الترصيع مالا يتخيله المتخيلون، و لا يلحق أدنى وصفه الواصفون، المدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنق و الغرابة، و من أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد، حجر موضوع في الجدار الذي يستقيل الداخل شديد السواد و البصيص، يصف الأشخاص كلها كأنها المرأة الهندية الحديثة الصقل... لا ينبغي لعاقل أن يتصدى لوصفه لأنه يقف موقف التقصير و العجز، و بالجملة فما أضن في الوجود كله مصنعا أحفل منه و لا مرأى من البناء أعجب و لا أبدع.»[1]

من الملاحظ أنّ ابن جبير بدأ أولا بوصف التابوت الفضي، ثم انتقل إلى ما بني عليه و ما اعتلاه من رخام عجيب، ثم انتقل إلى المسجد الفائق الجمال، بحيث بالغ في وصفه له عن طريق استخدامه أسلوب التفضيل.

ابن جبير هنا لا يفصل بين شيئين، بل يحاول أن يفصل بين يحاول أن يفصل بين موصوفه و بين كل ما في الموجود، و كثيرا ما بالغ في نقل صورته للقارئ، و لكن يتفاجئ القارئ عندما يجد أنه يعطي الحكم نفسه لأكثر من موصوف بصورة لغوية و من ذلك

[1]. ابن جبير: ص 19.

وصفه لجبانة بمصر معروفة بالقرافة إذ يقول: « و هي أيضا إحدى عجائب الدنيا لما تحتوي عليه من مساجد الأنبياء صلوات الله عليهم، و أهل البيت رضوان الله عليهم، و الصحابة و التابعين و العلماء و الزهاد و الأولياء، و ذوي الكرامات الشهيرة و الأنباء الغريبة.»[1]

ثم يذكر أسماء أصحاب القبور، ثم يتابع: « و على كلّ واحد منهما بناء حفيل، فهي بأسرها روضات بديعة الإتقان عجيبة البنيان.»[2]

عندما يذكر أسماء الشريفات صاحبات قبور النسوة، يعود فيذكر العبارة الأخيرة نفسها: « فهي بأسرها روضات...»[3] و يتبع ذلك بقوله: « و من العجب أنّ القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية و مشاهد معمورة، يأوي إليها الغرباء و العلماء و الصلحاء و الفقراء.»[4]

فمن الملاحظ أنّ ليس هناك عجب في بناء مساجد في تلك المنطقة و ذلك طبيعي إلاّ أن ابن جبير يرى كل شيء عجيب و غريب، و هذا ما يجعله مبالغا في وصفه له لهذه الأماكن.

ووصف أيضا مشهد الإمام الشافعي قائلا:

---

[1]. ابن جبير: ص20.

[2]. المصدر نفسه : ص 20.

[3]. المصدر نفسه : ص20.

[4]. المصدر نفسه : ص 24.

« بني بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلدة مثلها ، و لا أوسع مساحة، و لا أحفل بناء ... و النفقة عليها لا تحصى.»[1]

فهنا ابن جبير مرّة أخرى استخدم ألفاظ التفضيل " أوسع " " أحفل"

. البيت الحرام: وصف ابن جبير البيت الحرام و ما أحاطه به من مقدسات وصفا بليغا و عميقا كعادته، دال على استغرابه لكل الأشياء و نركز على ذكر مواطن الجمال و القداسة فيه، و من ذلك وصفه لبلاطات الحرم فقال: « في الصفح المقابل لداخل فيه... خمس رخامات منتصبات حولا...و في كل واحد منها تجزيع بياض لم ير أحسن منظرا منه، كأنه فيه تنقيط.»[2]و بعد هذا الوصف و يقال عنها: «كأنها أنابيب مخروطة يحار الوهم فيها.»[3]

فابن جبير لوصفه لبلاطات الحرم استخدم هنا أيضا أساليب التفضيل إلاّ أنه يولد تراكيب جديدة فالعبارة: " لم ير أحسن منها " لهذه الأخيرة دلالات عميقة بحيث تأخذ بالقارئ من العالم الواقعي إلى عالم الخيال ليجتهد في خياله كي يستطيع تصوره و لإكمال الصورة حاول أن « يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة، و هو مشرف كله بشرفات مبسوطة موكنة...

[1]. ابن جبير: ص 22.
[2]. المصدر نفسه: ص 70.71.
[3]. المصدر نفسه: ص 71.

كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ثم أحدثت فيها هذه التقاطيع و التراكيب، فجاءت عجيبة المنظر و الشكل.»[1]

فعند ابن جبير الصورة مبهرة و متسقة و منضمة مما جعلها في نظرة تستحق الوصف.

كما أنه وصف بلاطات الروضة النبوية أيضا قائلا: « شكلها شكل عجيب لا يكاد يتأنى تصويره و لا تمثيله.»[2]

في هذه العبارة قد أعجز على الوصف و لهذا رغم اجتهاد القارئ للتخيل تلك الصورة إلاّ أنه من الصعب جدا حتى أنه من المستحيل أن يتخيلها.

ذكر أيضا الرّحالة ابن جبير أبواب الحرم، و كيف تسمى كل واحد منها، إلاّ أنه انفرد بباب قبة و أطال في وصفه فقال: « على باب قبة عظيمة بائنة العلو يقرب من الصومعة ارتفاعا، قد ضمن داخلها غرائب من الصنعة الجصية و التخاريج القرنصية يعجز عنها الوصف.»[3]

إنّ زخرفة فيه و جمالها أعجزت بابن جبير عن وصفها إلاّ أنه جعل القارئ يصل إلى ما يريد.

---

[1]. ابن جبير: ص 76.

[2]. المصدر نفسه: ص 150.

[3]. المصدر نفسه: ص 83.

كما أنه أيضا وصف أنوارا الحرم قائلا « و في تلك الليلة مليء المسجد الحرام كله شروجا فتلألأ نوارا.»[1]

حسب ابن جبير، مهما حاول الإنسان أن يتخيل و أن يتوهم جمالا، فلا يمكنه أن يتخيل أجمل ما في هذا المرأى.

ـ المساجد: كانت المساجد بما تحويه من زخرفة و إتقان بناء محور اهتمام ابن جبير و أكثر مالفت نظره المسجد الأموي المتواجد في دمشق فبالغ في وصفه كثيرا كعادته، فقال أولا عنه « و شهرته المتعارفة في ذلك نفي عن استغراق الوصف فيه.»[2]

فرغم أنه قرّر ألا يستغرق في وصفه له بسبب شهرته إلاّ أنه يبدأ بالتفصيل في وصفه، فيقول متعجبا: « و من عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت، و لا تدخله و لا تلم به الطير المعروفة بالخطاف.»[3]

ثم يتحدث عن أبوابه و جدرانه المزخرفة فيقول: « جدرانه فرغت أغصانا منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف.»[4]

[1]. ابن جبير: ص 108.
[2]. المصدر نفسه: ص 235.
[3]. المصدر نفسه: 235.
[4]. المصدر نفسه: ص 208.

ثم ينتقل إلى الجهة الشرقية فيقول: « و في الجانب الشرقي من الصحن باب يقضي إلى مسجد من أحسن المساجد و أبدعها و صحا و أجملها بناء.»[1]

بعدها انتقل إلى وصف مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث قال: « المسجد المبارك مستطيل، و تحفة من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به، ووسطه كله صحن مفروش بالرمل و الحصى.»[2]

فقد وصف لنا ابن جبير كعادته مسجد الرسول صلى الله عليه وسلّم وصفا دقيقا حتى أنه قدّم لنا شكله على أنه مستطيل. و واصل وصفه لكل جهة له، قائلا: « فالجهة القبلية منها لها خمسة بلاطات على الصفة المذكورة و الجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات، و الجهة الغربية لها أربعة بلاطات.»[3] و يكمل في تدقيق و تركيب جملة للوصف: «... و في داخل الخواتيم دوائر مستديرة و نقط بيض تحف بها، فمنظرها منظر بديع الشكل، و في أعلاه رسم مائل إلى البياض، و في الصفحة القبلية أمام وجه النبي، صلى الله عليه و سلّم، مسمار فضّة...»[4]

نلاحظ أنّ ابن جبير في محاولته وصّف مسجد الرسول استخدم و ركّب جمل يستطيع القارئ أن يفهمها حتى أنه يتخيلها كأنها يراها.

---

[1]. ابن جبير: ص 241.

[2]. المصدر نفسه : ص 168.

[3]. المصدر نفسه: ص 168.

[4]. المصدر نفسه : ص 169.

و يكمل في الوصف قائلا: « و طول المسجد الكريم مئة خطوة و ستّ و تسعون خطوة، و سعته مئة و ستّ وعشرون خطوة، و عدد سواريه مائتان و تسعون، و هي أعمدة متصلة بالسّمك دون قسي تنعطف إليها.»[1]

كما أنه وصف أيضا جامعا على شط دجلة في مدينة الموصل بقوله: « ما أرى وضع جامع أحفل منه، بناء يقصر الوصف عنه، و عن تزينه و ترتيبه، و كل ذلك نقش في الأجر.»[2]

نلاحظ أن ابن جبير يعود مرّة أخرى في استخدامه جمل و أساليب التفضيل، و هذا دليل على أنّه اعتاد على استخدام هذه اللغة و هذه الألفاظ لوصفه أشياء مختلفة.

وصف جامعا في مدينة حران بقوله: « فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع و حسن ترتيب أسواقه المتصلة به مرأى عجبا فلما يوجد في المدن مثل انتظامه.»[3]

بعد كل هذه الموصفات التي قدّمها عن بعض المساجد فالقارئ، بحدّ ذاته يحتار أي مسجد أعجبه، وأي موصوف أبهره، فكلما وصف مسجد إلاّ و أبهرنا فيه بتلك اللغة و التركيب الجميل والرائع للكلمات و الألفاظ لإيقاع بالقارئ في بوتقة الخيال و الإعجاب، و هذا

[1]. ابن جبير: ص 171.

[2]. المصدر نفسه: ص 210.

[3]. المصدر نفسه: ص 221.

الإحساس قليلا ما يبقى في مشاعر القارئ، بحيث إذا بدأ ابن جبير في وصف مسجد أخر إلاّ و أسقط الأول ليأتي دور موصوف أخر ليحل محله.

. مقدسات النصارى: ابن جبير حسب ما ذكرنا سابقا هو سني و نشأ نشأة دينية قوية، و هذا ما أبعده عن أي اهتمام بشيء غير الإسلام و المسلمين، و لذلك لا نجد في رحلته الوصفية هذه الكنائس كثيرا رغم وجودها بكثرة، و هذا خوفا من إيقاع الفتنة في النفوس، فوصف كنيسة في دمشق، تعرف بكنيسة مريم قائلا: « تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبهت الأفكار، و تستوقف الأبصار، و مرآها عجيب.»[1]

هنا ابن جبير لم يفصل في الوصف كما في عادته و اختصر كلامه بالتعجب على ما رآها وكأنه لم يفهم شيء.

ثم قال عن كنيسة الأنطاكي بصقلية، و تحدث عن الربوة المباركة " مأوى المسيح و أمه " في دمشق التي تمثل مكانه دينية للمسلمين و النصارى فأراد في ذلك تصوير جمالها فقال: « و هي من أبدع مناظر الدنيا حسنا و جمالا و إشراقا و إتمانا بناء و احتفال تشييد وشرف وضع و هي كالقصر المشيد.»[2]

[1]. ابن جبير: ص 255.

[2]. المصدر نفسه: ص 248

يوقع مرّة أخرى ابن جبير بالقارئ في عناء التخيل فيقرّر أنه أعظم مما سبق ذكره، فتفوق بأساليب لغوية متنوعة فهو بتعبيره ووصفه لهذه الكنيسة و مأوى المسيح ينفي احتمال أو شكّ وجود أروع و أمثل من هذا الموصوف.

✓ **المدن و القرى وما تحويه:**

وصف ابن جبير القرى و المدن التي زارها، وبين رأيه بكل مكان، وأظهر بعض العجب و الغرابة فيها، و سأذكرها وفقا لترتيبه لها في رحلته.

. الإسكندرية و منارها: ابتدأ وصفها بالإعجاب الشديد فقال: « فأول ذلك حسن وضع البلد و اتساع مبانيه، حتى إنّ ما شاهدنا، بلد أوسع مسالك منه، و لا أعلى مبنى و لا أعتق و لا أحفل منه.»[1]

نلاحظ صيغ التفضيل، و تكرارها، فقد استخدمها ليؤكد تفرد هذا الموصوف، عن باقي الموصفات الأخرى، ثم قال: « ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها و أعتق و أمين.»[2]

بالغ ابن جبير في وصفه للإسكندرية كما في عادته في كل الموصفات إلاّ أنه استخدامه للجمل و الأساليب التفضيل " كأعتق و أمين " هي من الجمل التي تؤكد على فخامة

[1]. ابن جبير: ص 14.

[2]. المصدر نفسه: ص 14.

الإسكندرية و مدى جمالها و عتاقة بنائها ثم انتقل بعد ذلك إلى منار الإسكندرية ووصفه وصفا دقيقا قائلا: « ومن أعظم ما شهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عزّوجل على يدي من سخر لذلك أية للمتوسّمين و هداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى برّ الإسكندرية.»[1]

هنا ابن جبير أعطى قيمة عظيمة للمنار فجعلها المسلك و المنقذ لهم عندما كانوا في البحر فهو إشارة للوصول إلى الإسكندرية، و يكمل قائلا: « يظهر على أزيد من سبعين ميلا، ومبناه في غاية العتاقة و الوثاقة طولا و عرضا، يزاحم الجّو سموا و ارتفاعا، يقصر عن الوصف ينحسر دونه الطرّف، الخبر عنه يضيق و المشاهدة له تتسع.»[2]

فقد فصل ابن جبير في موصوفه هذا تفصيلا دقيقا، و يؤكد لنا مهما قاله و أوصفه إلاّ أنه لم يقدم شيء مقابل ما رآه، فالكلام لا يفي ما تشاهده العين.

. حائط في مصر: قال في شأن هذا الحائط: « و مما يجب ذكره على جهة التعجب أن من حيز مصر في شط النيل الشرقي مياسرا للصاعد فيه حائطا قديم البنيان، منه ما قدم تهدم و منه ما بقى أثره ... و بالجملة فشأنه عجيب و لا يعلم سره إلاّ الله عزّ وجل.»[3]

[1]. ابن جبير: ص 14.15.

[2]. المصدر نفسه: ص 15.

[3]. المصدر نفسه: ص 33.

الحائط الذي تكل عنه ابن جبير رغم أنه متهدم إلا أنه لم يسلم منه في وصفه له و من الطبيعي أن تتهدم أجزاءه و يبقى بعضها بعد طول سنين و لكن عند تتبع كلامه في هذا الحائط نجد أنه لا يريد ذكره موصوفا معجبا مميزا كما يصف دائما بل يريد ربطه بإشاعات حوله تربطه بالسحر و ما يتعلق به .

. مدينة عيذاب و مراسيها: قدّم لنا ابن جبير عيذاب بوصفه الدقيق كما هو في عادته قائلا: « هي مدينة على ساحل بحر جدّة غير مستورة أكثر بيوتها الأخصاص.»[1]

و يكمل قائلا: « و هي من أحفل مراسي الدنيا في سبب أنّ مراكب الهند و اليمن تحط فيها و تقلع منها زائدا إلى مراكب الحجاج الصادرة و الواردة.»[2]

فضّل ابن جبير مدينة عيذاب عن باقي المدن و أكد ذلك باستخدامه لفظ التفضيل " أحفل " فهو لم يتعجب من المدينة التي نعتها " بالجراد القاحلة لا شيء يؤكل فيها " بل تعجب من مراسيها و رؤساء هذه المراسي.

. جدّة : ذهب ابن جبير إلى تأكيد كثرة الموصوف فيها فقال: « بها جياب منفورة

[1]. ابن جبير: ص 45.

[2]. المصدر نفسه: ص ن.

في الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الإحصاء كثرة، و هي داخل البلد و خارجه.»[1]

ثم أراد بيان إطلاعه على ذلك و رؤيته له لا السماع فقط، فقال: « و عاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الإحصاء.»[2]

. مكة: وصف في مكة، متعجبا في أمرين، الأول: اجتماع الناس للعمرة الرجبية فقال: « اجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة، يتعجب المعاين له، لفور عددهم، فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجبا، فكيف و هم من بلد واحد، وهذا أدل الدلائل على بركة البلد، فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب.»[3]

ثم وصف هذه العمرة الرجبية قائلا: « و العمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العرفية، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذي لم يسمع بمثله، و يبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها، فيجتمع بها خلق عظيم لا يحصيهم إلاّ الله عزّوجل، فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهوي ذكره غرابة و عجبا، شاهدنا من ذلك أمرا يعجز الوصف عنه.»[4]

نلاحظ أن ابن جبير قد وصف مكة فلا أغرب و لا أعجب من العمرة في رجب، لذلك يفتخر بما رآه في هذا المنظر الذي فات الآخرين و حالفه الحظ هو به لكنه لم يذكر العمرة

[1]. ابن جبير: ص 61.
[2]. المصدر نفسه: ص 64.
[3]. المصدر نفسه: ص 105.
[4]. المصدر نفسه : ص 103.

الرمضانية بهذا الوصف على فضلها فهو لا يصف إلاّ ما يراه بعينه ليتأكد منه و أتاحت له الظروف في وصف العمرة الرجبية لوجوده في مكة في ذلك الوقت أما في شعبان و رمضان فكان داخل السفينة في طريقه إلى جزيرة صقلية، فلو رأى العمرة و هو في شهر شعبان و رمضان فحتما سيصفها الوصف نفسه أو أكثر.

أمّا الأمر الثاني فهو طعام مكة و شرابها الذي لم يذق مثله، و لم يصف غيره من طعام و شراب في رحلته، فهو يتحدث عن هذا الموضوع ضمن عنوان " ما خصّ الله تعالى به مكة من الخيرات و البركات."

فيقول: « فيباع فيها في يوم واحد و يعدد أصناف المبيعات إلى ما لا ينحصر و لا يضبط، ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافعة، و لعم جميعها بالمنفعة التجارية.»[1]

يتعجب مما هو في هذا البلد العظيم من خيرات و بركات إلاّ أنه خصّ البطيخ في وصفه لانبهاره بها فيقول: « ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ و السفرجل، و كل فواكهها عجب لكن البطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، و ذلك لأن رائحته من أعطر الروائح و أعطبيها، يدخل به الداخل عليك فنجد رائحته العبقة قد تبقة سبقت إليك، فيكاد يشغلك

[1]. ابن جبير: ص 96.

الاستمتاع بطيب رياه، عن إيّاه، حتى إذا ذقته خيّل إليك أنه شيب بسكر مذاب أو يجني النحل اللبّاب.»[1]

قد فصل ابن جبير في وصفه للبطيخ على أنه من أعجب ما رآه في هذا المكان سواء في رائحته أو ذوقه و استعمل جمل ثقيلة و ألفاظ التفضيل، ثم انتقل بعد هذا إلى وصفه للبن و الحلوى و لحومها.

. مدينة تكريكت: وصف ابن جبير مدينة تكريكت قائلا: « هي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء ، فسيحة الساحة، حفيلة الأسواق كثيرة المساجد، غاصة بالخلق أهلها أحسن أخلاقا و قسط من الموازن من أهل بغداد.»[2]

استخدم جملة بسيطة في وصفه لهذه المدينة على أنها واسعة و فسيحة.

وصف ابن جبير موقفا فيها يعرف " بالقيارة " فيه عيون، وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحالب دقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قارا، فقال في ذلك

الوصف: « فشاهدنا عجبا كنّا نسمع به فنستغرب سماعه.» [3]

[1]. ابن جبير: ص 98.

[2]. المصدر نفسه: ص 208.

[3]. المصدر نفسه: ص 209.

لكن لم يبالغ هنا ابن جبير في وصفه لهذه الأخيرة و يكمل قائلا: « بمقربة من هذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة.»[1]

. مدينة رأس العين: تحدث الرّحالة في كتابه " رحلة ابن جبير" عن عيون هذه المدينة، ثم خصّ عينا من عيونها بالوصف قائلا: «إنها عجب من عجائب مخلوقات الله عزّوجل.»[2]

ثم انتقل في وصفه له إلى مدرسة بإزائها دولاب يلقي الماء إلى بساتين مرتفعة من صب النهر، فقال: « و بمقربة من هذه الحائقة بحيث تناظرها مدرسة بإزائها حمام، و كلاهما قد وهى و أخلق و تعطل، و ما أرى كان في موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة.»[3]

ثم قال كلامه عنها: « و شأن هذا الموضع كله عجيب جدا.»[4]

فمن هنا نتساءل هل من المعقول أنه لا يوجد مدرسة في الدنيا كلها أم أنّ ابن جبير كما هو معروف مبالغا في و صفه له لأتفه الأشياء.

. مدينة حران: قد خصّ ابن جبير جزءا لحديثه عن هذه المدينة كما هو في بداية الأمر، تحت عنوان " ذكر مدينة حران كلاّها الله " ففيه قدم لنا كل ما يخص هذه الأخيرة و ذكر لنا ما لفت انتباهه من أهلها و أسواقها فقال: « و شأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل

---

[1]. ابن جبير:ص209.

[2]. المصدر نفسه: ص 218.

[3]. المصدر نفسه: ص 218.

[4]. المصدر نفسه: ص 218.

عجيب، أما عبادهم و زهادهم و السائحون في الجبال منهم فأكثر من يقيده الإحصاء و لهذه البلدة المذكورة حفيلة الانتظام عجيبة الترتيب مسقفة كلها بالخشب»[1]

رغم أن ما لحظناه من أهل هذه المدينة و حبهم للخير و كثرة عباده و زهادها و كيفية تنظيمهم للأسواق و ترتيبها مثير للعجب و التعجب إلاّ أنّ ابن جبير هنا كان عاديا و غير مبالغ في وصفه لها و على الرغم من اهتمامه بالأخلاق و الدين و هذا قد بين على أن المدينة منذ دخولها و لم تعجبه فقال: « بلد لا حسن لديه، و لا ظل يتوسط بردته، قد اشتق من اسمه هواءه فلا يؤلف البرد ماءه و لا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته و أرجاؤه، و لا نجد فيه مثيلا و لا تتنفس منه إلاّ نفسا ثقيلا، قد نبذ العراء، و وضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة و تعرت أعطافه من ملابس النضارة.»[2]

نلاحظ من هنا أن ابن جبير في بداية حديثه عن هذه المدينة أثناء وصوله إليها قدم لنا معايير و معان التي تبرهن لنا أنه لم تعجبه منذ بداية الأمر.

. مدينة حلب: عند مرور ابن جبير من مدينة حلب أعجبته قلعة فقال شأنها: « و شأن هذه القلعة في الحصانة و الحسن أعظم من أن ينتهي إلى وصفه.»[3]

[1]. ابن جبير: ص 220.221.

[2]. المصدر نفسه: ص 220.219.

[3]. المصدر نفسه: ص226.

يرى ابن جبير أن القلعة مهما حاولنا وصفها إلاّ أنها لا يمكن أن يطابق الموصوف، فهو أعظم بكثير من أن يصفها أحد كما أعجبته أيضا أسواقها فقال عنا: « فكل سوق منها تفيد الأبصار حسنا، وتستوقف المستوفز تعجبا.»[1]

و أعجب بمدرسة فيها فقال عنها: « و هذه المدرسة من أحفل ما شهدناه من المدارس بناءا و غرابة و صنعة.»[2]

استخدم ابن جبير لفظ " أحفل " ليبين لنا مدى غرابة و جمال هذه المدينة و مدارسها فهذه الأمور غالبا ما تثير اهتمامه في المدن التي يزورها بالإضافة إلى المساجد و البساتين و عيون الماء.

. دمشق: ذكر ابن جبير سابقا أن مكة و القاهرة فيها من الخلائق ما لا يحصى عددا، أما عند حديثه عن دمشق فيعطي حكمه بالتهاني بقوله: « أكثر بلاد الدنيا خلقا.»[3]

يبدو أنه اندهش و انبهر بعدد الخلائق فيها أكثر من مكة و القاهرة لذلك أطلق حكمه.

كما أنه ذكر لنا فيها مدرسة عدّها من أحسن مناظر الدنيا، فصور انصباب الماء فيها قائلا: « فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر.» [4]

---

[1]. ابن جبير: ص 227.

[2]. المصدر نفسه : ص 227.

[3]. المصدر نفسه: ص 234.

[4]. المصدر نفسه: ص 236.

بالغ ابن جبير في وصفه لهذه المدينة و قدّم لنا مواصفات تحمل معاني و دلالات جمالية و جغرافية لدمشق كما اعتبرها أكثر بلاد الدنيا خلقا.

الـخـاتـمـة

اكتسب أدب الرحلة حيزا و مكانة مرموقة في الأدب على مستوى الكتابة الأدبية و السردية على حدّ سواء، باعتباره منفردا من نوعه، يحمل جمالياته الخاصة به. ما زاد في جمالية أدب الرحلة، انفتاحه و استثماره لمعلومات و أخبار متنوعة، شملت مختلف الميادين و التي طبعت بدورها الرحلة، و أعطتها صفة الواقعية و ذلك بمعالجتها لأحداث و أمكنة و شخصيات لها حضور واقعي، و التي عمل الرّحالة " ابن جبير " على إبرازها من خلال استخدامه لتقنية الوصف التي ميزت أدب الرحلة من غيره من الآداب الأخرى. سواءا كان شعرا، رواية، قصة ... فأدب الرحلة يطرح شكلا من أشكال الحقيقة و تصورا للواقع.

نجد " ابن جبير " بين الفينة و الأخرى يطعم نصوصه بحكايات مشوقة يطغى عليها طابع الغرابة العجائبية ليخرج لنا رحلته في بناء أدب متكامل و قائم بذاته، فتوجت دراستنا هذه بمجموعة من النتائج هي كالتالي:

. تؤرخ رحلة " ابن جبير " للعالم الإسلامي في أواخر القرن السادس للهجري، و أوائل القرن السابع للهجري من الناحية السياسية و الاقتصادية و التاريخية و الاجتماعية و الثقافية.

. تنفتح بنية أدب الرحلة على عدد من المعلومات و فنون الإبداع، تراهن على ميزة لم يسبق و إن ظهرت في الأنواع الأدبية الأخرى، كاستخدام الإخبار و الوصف و السرد.

. يصيغ ابن جبير رحلته بأسلوب و لغة سهلة و مشوقة تتسم بحسن السرد و دقة الوصف و رشاقة العبارة و روعة التصوير، و حلاوة البيان و خفة السجع، مما أكسبها سيمة أدبية و قيمة فنية.

. يلعب البعد المكاني دورا أساسيا و مهما في رحلة " ابن جبير " و ذلك بتضافر مع عنصري الزمان و الشخصية، و استطاع أن ينوع في أساليب تشكيل المكان بالأساليب

السردية، فنص الرحلة يكاد يكون نصا سرديا بامتياز، و ذلك تعدد المستويات الوصفية و التصوير الفني، و يوظفها بشكل ناجح لخدمة الفضاء المكاني.

. تجسد رحلة ابن جبير القيم الروحية و المشاعر الإيمانية في مضامينها مما أضفى عليها جمالية خاصة و أكسبها سيمة مميزة في الأدب الإسلامي.

فإن كانت هذه الدراسة المتواضعة و البسيطة قد توصلت إلى بعض النتائج و الخصائص الجمالية أسلوبيا و سرديا و لسانيا في الرحلة، فهذا بتوفيق من الله عزّوجل أولا، و من الأستاذ المشرف أدامه الله ذخرا لطلب العلم، الذي أتاح لهذا الأدب بعدما كدنا ننساه أن يظهر من خلال فتحه لهذا المشروع.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

✘ القرآن الكريم.

1 . المصادر :

المصادر و المراجع

1. ابن جبير، رحلة ابن جبير تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار، دار صادر بيروت.

2 . المراجع :

1.2 . كتب باللغة العربية :

1. أبي حامد أحمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج2، دار الكتب العلمية، ط1. كلية الأدب جامعة القاهرة.1995.

2. حسني محمود حسين: أدب الرّحلة عند العرب، دار الأندلس، ط2، بيروت، 1983،

3. الدسوقي عمر: نشأة ، نشأة النثر الحديث و تطوره، القاهرة، دارا لفكر، 2007.

4. راشد الهندي علي مفتاح: أدب الرحلة، ابن جبير الرّحالة الأديب، جامعة الزواوية، ليبيا.

5. السافعي محمد بن إدريسي: رحلة الشافي، نشر محي الدين الخطيب، دط، المطبعة السلفية، القاهرة، 1350.

6. الشاهدي الحسن: أدب الرحلة بالمغرب، في المريني، ج1.

7. صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عن الجغرافيا المبصرة، في الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية، منشأة المعارف، دط، الإسكندرية 1999.

8. ضيف شوقي: الرحلات، فنون الأدب العربي " الفن القصصي " ط4، دار المعارف.

9. عتيق عبد العزيز: النقد الأدبي، ط2، دار النهضة العربية و النشر، بيروت 1972.

10. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد السلام ألشدادي، ط1 خزانة ابن خلدون بيت الفنون و العلوم و الأدب، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

11. عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية و الأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1996.

12. قنديل فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002.

المصادر و المراجع

13. لحميداني حميد: بنية النص السردي، ط1، المركز الثقافي العربي، للطباعة و النشر و التوزيع.

14. العسكري أبو هلال: كتاب الصناعتين، الكتابة و الشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1986 .

15. مرشد أحمد: البنية و الدلالة في روايات ابراهيم نصر الله، دار الفارس للنشر و التوزيع، عمان، ط1 ،2005.

16. مرتاض عبد المالك: نظرية الرواية، عالم المعرفة، 1998.

17. مودن عبد الرحيم: أدبية الرحلة، دار الثقافة، دار البيضاء، ط1، 1996.

18. الموافي ناصر عبد الرزاق: الرحلة في الأدب العربي، ط1، دارالنشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، القاهرة، 1995.

19. المكناسي محمد بن عثمان: الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، دت، الإسكندرية 1989.

20. نصار حسين: أدب الرحلة، ط1، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، مصر 1991.

21. الهاشمي أحمد: جواهر البلاغة، دار الفكر، ط2، بيروت، ج1، 1998.

22. يقطين سعيد : السرد العربي، مفاهيم و تجليات، ط1، رؤية النشر و التوزيع، القاهرة، 2005.

2.2: كتب مترجمة:

1. أغناطيوس يوليان وفتش كراتسكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، القسم1، الإدارة الثقافة في جامعة الدولة العربية، 1957.

2. عبد الفتاح كيليطو: المقامات، السرد، و الأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار البيضاء 05، المغرب، الطبعة2، 1995.

3. غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلستا المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، ط2، 1984.

3.2: القواميس:

1. أحمد بن فارس بن زكرياء أبي الحسن: معجم مقايس اللغة ، تح: عبد السلام محمد هارن، دار الفكر للطباعة و النشر التوزيع.

2. بن أحمد الفراهدي: كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ج4، دار التوفيق، بيروت لبنان 1994.

3. بن يعقوب الفيروز أبادي مجد الدين: القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرفوسي ط 8، مؤسسة الرسالة، لبنان 2005.

4. بن منظور: لسان العرب، تحقيق نخبة من الأساتذة، دار المعارف،ج3، "مادة رحل " ، دط، دت، القاهرة.

المصادر و المراجع

5. بن منظور: لسان العرب، تحقيق عامر أحمد بن حيدر، مجلّد 11، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م.

6. زيتوني لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، ناشرون، ش.م.ل. بيروت لبنان 2002.

7. وهبة مجدي " كامل المهندس ": معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب مكتبة لبنان، بيروت، ط2.

8. معجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات، و احياء التراث جمهورية مصر العربية، ط4، مكتبة الشروق الدولية.

9. الموسوعة العربية: دت، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، الرياض، ط2.

المصادر و المراجع

4.2: المقالات و الجرائد :

1. أحمد مشاري العدواني: عالم الفكر، المجلد13، العدد 4، وزارة الإعلام الكونية، مارس1983.

2. عبد الرزاق خليل أحمد: جمالية المكان في رحلة ابن جبير الأندلسي، كلية الأدب، الجامعة العراقية.

5.2: الرسائل الجامعية :

1. أتساعد سميرة: الرحلة إلى المشرف في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة و التطور و البنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، 2006.2007.

2. بادشاه حافظ محمد: الحجاز في أدب الرحلة العربي، أطروحة لنيل شهادة الدكتورة في اللغة العربية وأدبها،المشرف كفايت الله همداني، كلية الدراسات و البحوث المتقدمة المتكاملة، دفعة 2009.2013، الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام إياد، باكستان.

3. روباش جميلة: أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري القديم،المشرف محمد بن لخضر فورار، كلية الأدب و اللغات، دفعة 2014.2015.جامعة محمد خيضر بسكرة.

4. زردومي إسماعيل، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، دفعة 2005.2006.

6.5: المواقع الإلكترونية:

1. www.café.umontreal.ca/genres/n-voyage.html

المصادر و المراجع

المصادر و المراجع

الـفـهـرس

الملخــص:

قام ابن جبير بثلاث رحلات إلى المشرق، لم يترك لنا من ذكرها إلا حديثه عن رحلته الأولى.

- ✓ **الرحلة الأولى:** بدأها من غرناطة سنة 579هـ وعاد إليها سنة 581هـ، أي أن الرحلة الأولى استغرقت سنتين سجل فيها مشاهداته و ملاحظاته بعين فاحصة في يومياته المعروفة " برحلة ابن جبير"
- ✓ **الرحلة الثانية:** شرع فيها في أوائل ربيع الأول سنة 585هـ و انتهى منها سنة 586هـ، و دفعه إليها أنباء استرداد بيت المقدس من الصليبيين من قبل السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة583هـ.
- ✓ **الرحلة الثالثة:** كانت اثر وفاة زوجته التي كان يحبها حبا شديدا، فدفعه الحزن عليها إلى القيام برحلة ثالثة يروح بها عما ألم به من حزن على فراقها، فخرج من سبتة إلى مكة و بقي فيها فترة من الزمن ثم غادرها إلى بيت المقدس و القاهرة و الإسكندرية، حيث توفي فيها سنة 641هـ.

الكلمة المفتاحية:

رحلة ، ابن جبير ، جمالية ، وصف ، أدب الرحلات ، سرديات عربية قديمة ، المكان ، الشخصيات.